المشرق

السنة السادسة والثلاثون — تموز - ايلول ١٩٣٨

الديارات النصرانية في الاسلام

بقلم

حبيب زيات

مقدمة

من الغريب انه ليس في المصنفات التي وضعها كتّاب العرب ، وبلغتنا اسماؤها ، تاريخ لاحد النصارى في ذكر البيع والديارات ووصفها ، في الاسلام. وغاية ما انتهى الينا في الكلام على طائفة منها المجموع الذي عُني بكتابته الشيخ المؤتمن سعدالله بن جرجس بن مسعود ، من اقباط القرن السادس للهجرة. وهو في مجلّدين. طُبع احدهما منحولًا للشيخ ابي صالح الارمني ، مع ترجمته الى الانكليزية ، عن الاصل المحفوظ في خزانة باريس.[1] وبقي الآخر مخطوطاً مخبوءًا في حوزة احد كتبة القبط. ورثه من بعض انسبائه من رجال الكنيسة وهو شديد الضنّ به على العلم والعلمآ. لا يطيب قلباً بنشره. ولكن الاديار المذكورة في هذين المجلّدين هي برض من عِدّ مما كان قديماً منها في الديار الاسلامية. وحسبك ان مدينة الرها وحدها كان فيها وحولها ، فيما رواه الاصطخري ، « زيادة على ثلاثمائة دير وصوامع كثيرة.»[2] وابلغها ابن الفقيه الى « ثلاثمائة وستين ديراً.»[3] على بعض مبالغة دون شك في الروايتين. فما ظنك بما كان منها في سائر البلدان والجبال والقفار.

ومما فات الشيخ سعدالله التنبّه له انه لم يتفق له مرّة ، ولو عرضاً ، ان

---

١) B. T. A. Evetts, *The Churches, monasteries of Egypt*. Oxford, 1895

٢) مسالك الممالك ، ص ٧٦

٣) كتاب البلدان ، ص ١٣٤

يصف كيفية بناء دير واحد من الاديار التي عددها ؟ او ان يشير الى شيء من خططها ورسومها ، وهندسة تلاليها ومعابدها ومرافقها ؟ وما كان يحف بها ويضاف اليها من البساتين ، والمعاصر ، والحانات ، ودور الضيافة ، والمتنزهات . واغفل ايضاً وصف كل ما كان واقفاً عليه في زمانه من احوال الرهبان ؟ وما كان شائعاً معروفاً من طرائق معيشتهم وسُننهم ومصطلحاتهم في اللباس والزيّ ؟ واساليب كل فئة منهم في الزهد والانقطاع ، والانفراد والاجتماع . شأنَ كل المؤرخين في الشرق في قلة التوسّع والاستيفاء ، وعدم الاكتراث والاحتفال بمثل هذه الشروح والاوصاف الخطيرة . فلا ندري اليوم كيف كانت حياة الاديار النصرانية بعد الهجرة . ولا نعلم من امرها سوى ما شاء فريق من كتبة الاسلام حكايته لنا من مجالس اللهو والقصف التي كانت تُعقد في ملحقاتها وحاناتها . وما كان يرتكب فيها من المنكرات حسبما نظمه في وصفها بعض الشعراء والخلعاء المتطرّحين فيها ، على رضى او كراهة من اهلها . وهذه الحكايات والاوصاف هي اليوم المصدر الاوحد والمرجع الفرد للباحث عندنا المتشوّف الى استطلاع شيء من انباء الرهبان والمتبتلين ؟ ومعرفة ما آلت اليه خلواتهم ومتعبداتهم من الابتذال والانتهاك في عهد الخلفاء ، والملوك والولاة ، منذ القرن السابع للميلاد الى انقراض الخلافة العباسية في القرن السادس عشر .

وقد ألّف غير واحد من الائمة وفحول الشعراء في هذه الديارات والحانات . وجمعوا الاشعار المقولة فيها . وما كان يحدث فيها ويجري بين جدرانها من شجون ومجون ، وزهد وعبادة . ووصفوا بعض مواقعها وخصائصها ؟ وما كان يرتفع منها من الخمور ، والاثمار ، والنباتات ، والتجارات ؟ ويحمل اليها من النذور ؟ ويُستشفى فيها من الادواء والعاهات . ونبّهوا على ما كان مشتهراً خاصة بنزول الملوك والكبراء فيها ؟ وانقطاع بعض الشعراء والمجّان اليها . وقد بحثنا عنها طويلاً في تضاعيف الكتب المصنفة في الفهارس والتراجم والوفيات . ووقفنا منها على تعداد ما يأتي :

١ كتاب الحيرة وتسمية البيع والديارات لهشام بن محمد الكلبي(١) . وهو مفقود .

---

١) ارشاد الاريب لياقوت ٧ : ٢٥٢

والأرجح انه هو نفس المصنف المشار اليه في كتاب مسالك الابصار للشهاب العمري في الكلام على دير الاسكون (١ : ٣١١)

٢ كتاب الديارات لابي الفرج الاصبهاني ، صاحب كتاب الاغاني(١. نُكب الادب بخسارته. وبقيت نقول منه في معجم البلدان لياقوت ، ومعجم ما استعجم للبكري، ومسالك الابصار للعمري ، وروايات شتى عنه في كتب الادب.

٣ كتاب الدَّيرة للسريّ الرفّاء الموصلي الشاعر، المتوفى في بغداد سنة ٣٦٢ للهجرة(٢ (٣/٩٧٢ م). وقد ضاع بين سمع الارض وبصرها. ولا نعلم لاحد رواية عنه.

٤ كتاب الديارات لابي الحسن علي بن محمد الشابشتي الكاتب ، المتوفى سنة ٣٨٨(٩٩٨م) ذكر فيه كل دير بالعراق والموصل والجزيرة والشام والديارات المصرية. وهو على اسلوب الديارات للخالديَّين وابي الفرج الاصبهاني(٣ . كان منه نسخة ثمينة مزوّقة illustrée وقف عليها شمس الدين محمد بن طولون الدمشقي في القرن العاشر للهجرة (٤. ولا يخفى ما فاتنا بفقدها من الفائدة الجلّى لامكان دلالة ما فيها من الصور والاشكال على رسوم الديارات وضروب ابنيتها . وتوجد من هذا الكتاب نسخة مخرومة في خزانة برلين. سقط منها جانب من ديارات العراق ، وكل ديارات الشام، ما خلا دير البخت. وفي دار الكتب المصرية نسخة عنها خطية قليلة الضبط . واخرى مصورة في الخزانة التيمورية . وعنها صورة في خزانتنا. وفيها كل طريف ومستمع . وقد توسع كثيرًا في اخبار الشعراء والامراء الذين نظموا في الديارات واتصلوا بها. وذكر بعض من زارها من الخلفاء . وهو ذخر للمؤرخ وغنية لكل اديب ، وحقيق بالخدمة والطبع.

٥) كتاب الديارات للاخوين الشاعرين الخالديَّين(٥ ابي بكر وابي عثمان المتوفيَين في اواخر القرن الرابع للهجرة. وقد اتهمهما السريّ كثيرًا بالإغارة على اشعاره وبنات افكاره. فلعلهما قلّداه ايضًا او زاحماه في هذا الباب. وفي ياقوت والعمري مآخذ عنهما.

٦ كتاب الديارات لابي الحسن علي بن محمد المدوي السُّمَيْساطي. قال محمد بن اسحق النديم: « وهو يحيا في عصرنا في سنة ٣٧٧ (٨/٩٨٧ م) له كتاب الديارات كبير.»(٦ وفي جزء من تاريخ بغداد لابن النجار « انه كان شاعرًا يمدح الملوك . اصله من الموصل . سكن

١) وفيات الاعيان لابن خلكان ، ص ٤٢٦

٢) ارشاد الاريب لياقوت ٤ : ٢٢٧

٣) وفيات الاعيان ، ص ٤٢٦

٤) ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر لابن طولون الحنفي ، رقم ١٠٣٢ من الخزانة التيمورية.

٥) ارشاد الاريب لياقوت ٧ : ٢٥٢

٦) ارشاد الاريب ٥ : ٢٧٥-٢٧٦

بغداد ودخل واسط في سنة اربع وتسعين وثلثمائة (١٣٠٣/٤ م)».(١ وفي بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم عدة مطالعات فيه وروايات عنه لم نجدها في غيره من كتب الديارات فلا شكّ انه كان اوسع اشتمالاً واغزر فوائد منها كلها . ولذلك وصفه صاحب الفهرست بالكبير. ولعل هذا التوسع ، مع قلّة اقبال النساخ على كتابة غير مصنفات الحديث واللغة ، كان سبب اهماله وندرة نُسخه . فمزّ طلّاءها وصارت الى من لا يعرف لها قدرًا ولا قيمة وقُطعت اوراقها وبيعت على العطار والاسكافي ،

فهي إمّا مزاود للفتا قير ، واما بطائن للخفاف

٧ كتاب الدَيرة لمحمد بن الحسن بن رمضان النحوي (٢. ويظهر انه هو الذي اشار اليه ياقوت في استدراكه عليه ما ذكره عن دير الرصافة.

٨ اوصاف الاديار في معجم البلدان لياقوت الرومي (٢:٦٣٩–٧١٠ من طبعة ليبسك) تنقل مرارًا كثيرًا منها بالحرف الواحد عن تقدمه من مؤلفي الديارات. وسمّى منهم ابا الفرج الاصبهاني والخالديَّين. وفيها ، على ما يشوبها من اغلاط النسخ والطبع ، غناء وعزاء عما تلف او فات مما كان باقيًا في زمانه ولم ينتهِ الينا من كتب الديارات.

٩ نعوت ثمانية وثلاثين ديرًا من الاديار اوردها البكري ببعض اختصار في كتابه معجم ما استعجم طبعة وستنفلد سنة ١٨٧٧ (١:٣٥٩–٣٨١). ولم يأتِ فيها بغريب . ولم يسمِّ ممن نقل عنه غير ابي الفرج الاصبهاني من مؤلفي كتب الديارات.

١٠ باب الديارات في كتاب مسالك الابصار وممالك الامصار لشهاب الدين العمري في المجلد الاول منه المطبوع بمصر سنة ١٩٢٤ (ص ٢٥٤–٢٨٦) وفي طبع المتن بعض اوهام وتحريفات استدركناها في مقالة لنا طويلة نشرناها بمجلة لغة العرب في بغداد (٦ [١٩٢٨] ٢٢٢–٢٤٣) وقد نقل المؤلف كثيرًا عن ابي الفرج الاصبهاني ، والخالدي ، والشُّمَيْساطي ، وربما نقل عن الخالدي الصفحة والصفحتين والثلاث. وفيه زيادات على ياقوت تبلغ نيفًا وعشرين ديرًا.

١١ مجموع في خزانة بريتيش موزيوم في لوندرة رقم Add. 19408 بعنوان «الدرّ المنتقط من كل بحر وسفط» لمحمد بن علي بن محمود الكاتب الدمشقي. أنجزه في شهور سنة ثلاث وخمسين وسبع مائة (١٣٥٢ م) وقال في مقدمته: «بوّبته سبعة ابواب من ثلثين بابًا . واودعته حكمًا وادابًا» ولكن لم نجد فيه الا بعض الابواب فقط . ومنها قسم ناقص . وفيه تقديم وتأخير . وفي اسماء الابواب بعض التشويش والاختلاط منها الباب السابع والعشرون ذكر عنوانه «البدور المسفرة في نعت الكنائس والاديرة» وليس به . ولكن في الصفحات ١١٧–١٢٤ اوصاف لتسعة عشر من الاديار . اولها دير الروم وآخرها دير مرّان بظاهر دمشق، تلقّطها جامعها من كتب شتى . وفي سياقتها تقص واقتضاب . ويظهر انه لم يستمدها من الخالديَّين

١) جزء من تاريخ بغداد لابن النجار ، رقم ٢١٣١ خزانة باريس ، ص ٣٤

٢) ارشاد الاريب ٦:٤٦٥

ولا من الشابشتي . ولا يبعد ان تكون طائفة منها مأخوذة من ديارات ابي الفرج الاصبهاني . فهي ، على كل حال ، تصلح للنشر . واقتصر ، في كلامه على دير مرّان ، على تكرار ما جاء عنه في كتاب بدائع البدائه لابن ظافر من حكاية الشاعر البيغاء التي تقدمت للثعالبي في يتيمته . وفي مقابلة هذه الفصول على ما جاء في معجم ياقوت فضل وزيادة في البيان والتعريف . وهذه اسماء الاديرة الموصوفة فيها :

دير الروم (ص١١٧–١١٩) نقل فيه حكاية مدرك بن علي الشيباني ومزدوجته في عمرو بن يوحنا النسطوري .
دير الزندورد . والثعالب (ص ١١٩)
دير سالو . والثعالب (مكرر) . دير الجاثليق (ص ١٢٠)
دير اشموني (ص ١٢٠–١٢١)
دير جرجس (ص ١٢١)
دير العذارى (ص ١٢١–١٢٢)
دير مرمار (مار ماري) ص ١٢٢
دير هند (ص ١٢٣)
دير يونس . وقوطا . والشياطين (ص ١٢٤)
دير الزعفران (ص ١٢٥)
دير القُصير (ص ١٢٥–١٢٦)
دير البركة ويعرف بدير المافر (ص ١٢٦)
دير باب الفراديس بدمشق . زاره المتوكل على الله الخليفة العباسي (ص ١٢٦–١٢٧)
قصيدة في دير الزعفران السابق الذكر (ص ١٢٨–١٢٩)
خبر عن دير زكّى ظاهر الرقة (ص ١٢٩)
دير مرّان (ص ١٢٩–١٣٤)

١٢ « ذكر ديارات النصارى » في كتاب الخطط للمقريزي . اقتصر فيه على تعداد اديرة الديار المصرية ، وتعريف منشئيها واحوالها . ونقل عن الشابشتي وياقوت الرومي اخبار ما كان مقصودًا منها في الاسلام للتعف واللهو . ولم يأتِ فيها بمزيد يجدر بالتنويه .

وقد تفرغنا لمطالعة كل ما وقع الينا من هذه المؤلفات والاوراق . وراجعنا ما تهيّأ معها من كتب الادب ودواوين الشعرآء . وقيّدنا منها كل ما استشفّ لنا من خلال الفاظه وابياته بعض التصريح او التلويح الى شيء من اوصاف الاديار والتعريف باحوال المقيمين فيها . وقارنّا بين كل منها ، ونبهنا على اصولها بغاية الضبط . وربما اضطررنا مكرهين الى الاستشهاد احيانًا ببعض الابيات والاقوال على ما فيها من الرفث والسقط ، بعد ان استبدلنا بما انتقاد لنا من الفاظها

المنكرة وهذبنا ما استطعنا من حوشيّها . ولا حاجة الى القول اننا كنا نودّ تجنب رواية مثلها لو خُيّرنا فيها . ولكن الحقيقة ضالّة المؤرخ ينشدها في كل وادٍ ويقدح في البحث عنها وارتيادها بكل زناد . وغاية هذا الكتاب تصوير حالة الديارات في الاسلام كما كانت حقًّا بما فيها من حسن او قبح . فلا بد ان يكون كالمرآة تصف كل وجه بمثاله . ورائد الحق ، كما قيل ، لا يكذب اهله .

وقد اقتصرنا في كل ما تناولناه من المباحث والفصول على شرح ما تمثل لنا من دلائل الآثار الاسلامية وحدها كما نبهنا عليه في العنوان . ولذلك لا يجد الناظر في هذه الصفحات الّا جانباً فقط من تاريخ المعاهد النصرانية بعد الهجرة الى سقوط دولة المماليك في القرن السادس عشر ، كما تمثلت لنا في الاصول التي درسناها . وقد استعنّا بانوار هذه الآثار الضئيلة لإضاءة بعض الظلمات المكتنفة ماضي الديارات في الاسلام ، على غير اهتداء بمثال سابق ، او احتذاء لاحد ممن تقدمنا من الكتبة والمؤرخين . ونرجو ان نكون ، في كل ما حاولنا جلاءه من غوامض العاديات المسيحية في العراق ومصر والشام ، قد رُزقنا فيه حظ المقاربة في الحكم . وكُفينا بعون الله وتوفيقه شطط الخطإ والوهم .

الدير والعُمْر

اكثر ما كانت تكون الاديار في ضواحي المدن بين الرياض والحدائق. وفي قمم الجبال والروابي المطلّة على الاودية والسهول الفسيحة . وفي المواضع المنقطعة عن الناس. ولذلك قال ياقوت في تعريفها: «الدير بيت يتعبد فيه الرهبان. ولا يكاد يكون في المصر الاعظم . انما يكون في الصحارى ورؤوس الجبال. فان كان في المصر كان كنيسة او بيعة.»[1] ولا يخفى ما في هذا الاستدراك الاخير من الخطإ والقصور. واصوب منه قول المقريزي «الدير عند النصارى يختصّ بالنسّاك المقيمين به. والكنيسة مجتمع عامتهم للصلاة.»[2]

وفي الشعر اشارات الى الاديار القديمة القائمة فوق الهضاب والقلل، وفي سفوح الاطواد وذرى المستشرفات. ولربيعة بن مقروم الضبيّ في وصف احدى الحسان:

لو انها عرضت لاشمط راهب ، في رأس مشرفة الذرى متبتّل ؛
جآرٍ ساعات النيام لربّه حتى تخدّد لحمه ، متشمّلِ ،
لَصبا لبهجتها وحسن حديثها ، ولهمَّ من ناقوسه بتنزّل.[3]

ومن الديارات التي اشتهرت بعلوها وارتفاعها وسمّيت لذلك به دير بالموصل في اعلى جبل مطلّ على دجلة . كان يُضرب به المثل في رقة الهواء وحسن المُستشرَف. وقيل له لهذا السبب الدير الاعلى.» وله درجة منقورة في الجبل تفضي الى دجلة نحو المائة مرقاة . وعليها يستقى الماء من دجلة.»[4]

واحسن وصف حُفظ لهذه الاديار المناطحة السحاب قول الشهاب العمري الدمشقي في دير السيق ، قبلي البيت المقدس :

ارى حسن دير السيق يزداد ، كلما نظرت اليه والفضاء به نضرُ ،
بنوه على نجد على النور مشرف ، كتخت مليك تحته بُسُط خضرُ ،
واشرق في سُود الغمام ، كأنما تشقّق ليلًا عن جلابيه الفجرُ ،

---

١) معجم البلدان، طبعة اوربة ، ٢ : ٦٣٩
٢) الخطط ، مطبعة النيل ، ٣ : ٤٠٦
٣) الاغاني ، مطبعة بولاق ، ١٩ : ٩٣
٤) مسالك الأبصار للعمري ١ : ٢٤٠-٢٤١

وقام على طود عليّ ، كأنما مصابيحه، تحت الدجى، الانجم الزهر .
وزُفّت اليه الشمس من جنب خدرها ، وناغاه جنح الليل في أفقه البدر ؛
وألقت اليه الريح فضل عنانها ، واحنى عليها لا تُبلّ له عذر .
ولو كان كالنسرين ، هان ارتقاؤه ؛ ولكنه قد حُطّ من دونه النسر ،
علا نهر ريحا ، والمجرّة فوقه ، فمن فوقه نهر ومن تحته نهر .(١

ومن اغرب ما جاء في تفسير كلمة الدير قول ابن سيده في المحكم « الدير خان النصارى .»(٢ وقد فاته انه كان ايضاً للمسلمين منذ عهد الخلفاء الراشدين :

كالخان تنزله وترحل غادياً ويحلّ بعدك فيه من لا تعلم

ويقال للراهب الساكن في الدير المنتسب اليه « ديّار وديراني .»(٣ وللراهبة ديريّة وديرانية . قال احد بني تغلب في خبر دير العذارى فيما زعموا « خلَونا بعشرين ديرية .»(٤ وقال اسحق الموصلي :« دخلت دير القائم اطوف فيه . فرأيت ديرانية حين نهد ثدياها . عليها المسوح . ما رأيت احسن من وجهها وجسمها .»(٥ وللعمري في الدير الابيض بمصر :

وبالدير ديرانية برزت لنا فتمّ لنا فيها حديث واسمار(٦

ومن جموع الدير التي لم ترد في معاجم اللغة الديَرة . ومنه كتاب الديَرة للسريّ الرفّاء . ومثله لمحمد بن رمضان النحوي . وقد استجاز حسام الدين الحاجري جمعه على ديور في قوله :

واستجْلها عذراء مشمولة ، أمّ الرهابين وبنت الديور(٧

ويسمّى الدير ايضاً العُمْر وجمعه اعمار . قال الحسن بن هانئ ، وقيل انه للحسين بن الضحاك :

١) مسالك الابصار للعمري ١ : ٢٤٠-٢٤١
٢) لسان العرب ٥ : ٣٦٧
٣) اساس البلاغة ١ : ٢٦١
٤) مسالك الابصار ١ : ٢٦٠
٥) مسالك الابصار ١ : ٢٦٩
٦) مسالك الابصار ١ : ٢٨٣
٧) حديقة الافراح لإزالة الاتراح للشرواني ، ص ١٤٩

آذنك الناقوس بالفجر وغرّد الراهب بالعُمر(١

وللخالدي في دير مار ميخايل باعلى الموصل :

يا صاحبيَّ ، هو العمر الذي جمعت فيه المُنى فاغدوَا بالدير او روحا(٢

وقد اشتهر بهذه التسمية خصوصاً عمر كسكر او واسط . وعمر الزعفران بنصيبين . وعمر احويشا باسعرد من ديار بكر . وعمر مار يونان بالانبار . وعمر الزرنوق على فرسخين من جزيرة ابن عمر . والى جانبه دير آخر يعرف بالعمر الصغير . وعمر نصر بسامرّا . وفيه يقول الحسين بن الضحاك :

يا عمر نصر ، لقد هيجت ساكنةً هاجت بلابل صبّ بعد إقصار(٣

ويقال لصاحبه عمّار . وفي ديوان ابي نواس :

اذا الندامى ارادوا ، ما باعهم خمّار
حمرآء فيها اصفرار ، وعندهم عمّار(٤

وفي تاج العروس : « العُمر بالضم المسجد والبيعة والكنيسة . سميت باسم المصدر لانه يُعمر فيها اي يعبد.»(٥ وقد بحثنا كثيرًا فلم نعثر على شاهد واحد يثبت استعمال العُمر بمعنى المسجد . ولا ندري ما الفرق في هذا التحديد بين البيعة والكنيسة ، إلا اذا اراد ان يعني بالكنيسة معبد اليهود . وعلى ذلك يكون ، على رأيه ، معنى العمر بيت العبادة بالاطلاق لاهل الكتاب على السواء . وليس في اقوال الكتاب والشعرآء قديمًا وحديثًا ما يؤيده . قال ياقوت في تفسير العُمر :

« ذكر ابو حنيفة الدينوري في كتاب النبات ان العمر الذي للنصارى انما سمّي بذلك لان العمر في لغة العرب نوع من النخل . وهو المعروف بالسكر خاصة . وكان النصارى بالعراق يبنون ديرتهم عنده فسمّي الدير به . وهذا قول لا ارتضيه . لان العمر قد يكون في مواضع لا نخل بها البتة كنحو نصيبين والجزيرة وغيرهما . والذي عندي فيه انه من قولهم عمرت ربي اي عبدته . وفلان عامر لربه اي عابد وتركت فلانًا يعمر ربه اي يعبده . فيجوز ان يكون

١) كتاب الديارات للشابشتي ، ص ١١٢-١١٣

٢) معجم البلدان ٢ : ٦٦٣ ٣) معجم البلدان ٣ : ٧٢٥

٤) ديوانه ، رواية الاصبهاني . باريس رقم ٣٠٨٣ ، ص ٤٢٥

٥) تاج العروس ٣ : ٤٣٠

الموضع الذي يُتعبَّد فيه يسمى العمر . ويجوز ان يكون مأخوذًا من الاعتمار والعمرة وهي الزيارة. وان يراد انه الموضع الذي يُزار. ويقال: جاءنا فلان معتمرًا اي زائرًا. ومنه قوله: وراكبٌ جاء من تثليث معتمر[1]. ويقال: عمرت ربي وحججته اي خدمته. فيجوز ان يكون العمر الموضع الذي يخدم فيه الرب.»[2]

وفي مراصد الاطلاع ان الدير يسمى عمرًا اذا كان مجاورًا للاماكن المعمورة وهو قوله: «ما كان من مواضع المتعبدات التي فيها مساكن الرهبان بقرب العمران فانه يسمى العُمر.»[3]

وفي هذه الاقوال كلها ما لا يخفى من التعمّل والتحكم كدأب اكثر ارباب اللغة والمفسرين في انكار اعجمية كل ما يمرّ بهم من الالفاظ الدخيلة. واحتيالهم لاستنباط اصل لها عربي، ولو بطريق التكلف والتمحّل والشعوذة. والصحيح ان الكلمة من اصل ارامي ܥܘܡܪܐ بمنى البيت والمنزل.

---

١) هذا عجز بيت لاعشى باهلة، صدره:
فجاشت النفس لما جاء جمعهم

٢) معجم البلدان ٣:٧٢٤

٣) مراصد الاطلاع ١:٤٣١

تخطيط الاديار

وتقدير ابنيتها وزينتها

لم يتّفق لاحد من الكتبة والمؤرّخين الإلماع الى شيء من اوصاف ابنية الديارات، وتقدير مساكنها وملحقاتها. فلا نعرف منها سوى انها كانت تشتمل فيما عدا الكنيسة والهياكل، على القلالي، وبيوت المائدة، والمخادع للمستودعات، ودور الضيافة وما يلحق بها ويضاف اليها من الصهاريج، والحدائق، والبساتين، والحانات. ولا شكّ ان رسومها وخططها كانت تختلف باختلاف الامصار والسكان. وربما اقتعدت احياناً غارب الجبال، ونُقرت في الصخر الاصمّ. واعجب ما عرف منها دير متى شرقي الموصل « واكثر بيوته منقورة في الصخر. وفيه نحو مائة راهب لا يأكلون الطعام الا جميعاً في بيت الشتاء او بيت الصيف. وهما منقوران في صخرة. كل بيت منهما يسع جميع الرهبان. وفي كل بيت عشرون مائدة منقورة في الصخر. وفي ظهر كل واحدة منهنّ قبالة[1] برفوف وباب يغلق عليها. وفي كل قبالة آلة المائدة التي تقابلها من غضارة وطوفرية وسُكُرّجة.[2] لا تختلط آلة هذه بآلة هذه. ولرأس ديرهم مائدة لطيفة على دكان لطيف في صدر البيت يجلس عليها وحده. وجميعها حجر ملصق بالارض. وهذا عجيب ان يكون بيت واحد يسع مائة رجل. وهو وموائده حجر واحد.»[3] وكان لهذا الدير « عدة ابواب مفرطة في الكبر. وكلها من حديد مُصمَت. وبه صهريج عظيم يجتمع فيه ماء المطر. عمقه اثنا عشر ذراعاً. لكل شهر ذراع من

١) لم ترد هذه اللفظة في معاجم اللغة ولا في تكملة دوزي. ويُراد بها هنا بيت صغير كالخزانة يكون في جُدُر المنازل. وهو المعروف اليوم عند العامة بالجرستان. وفي كتاب آثار البلاد للقزويني في كلامه على دير متى لفظة « بويت» (كذا) تصغير بيت. في موضع «قبالة».

٢) الطوفرية نوع من الصحاف. ويقال احياناً طيفورية كانها نسبة الى طيفور، لعلّه اول من اقترح صنعها. والسكرّجة لفظة فارسية، ومعناها معرّب الخل vinaigrier (شفاء الغليل للخفاجي، ص ١١٦)

٣) معجم البلدان ٢ : ٦٦٤

الماء. وينفتح هذا الصهريج من موضعين في اعلاه واسفله. فيخرج ماؤه من اسدين من صُفر.»[١]

ومن الاديار التي عُلِّقت في الجبال بمصر دير مغارة شقلقيل ، تجاه منفلوط. «وهو نقر في الحجر على صخرة تحتها عقبة. لا يتوصل اليه من اعلاه ولا من اسفله. ولا سُلَّم له. وانما جعلت له نقور في الجبل. فاذا اراد احد ان يصعد اليه. أُرخيت له سَلَّة فامسكها بيده. وجعل رجليه في تلك النقور وصعد. ودير الطير قبالة سملوط وله سلالم منحوتة في الجبل.»[٢] ودير السبعة الجبال باخميم ، وهو دير عالٍ بين جبال شاهقة. ولا تشرق عليه الشمس الا بعد ساعتين من الشروق لعلوّ الجبل الذي هو في لحفه. واذا بقي للغروب نحو ساعتين خُيّل لمن فيه ان الشمس قد غابت واقبل الليل فيشعلون حينئذٍ الضوء فيه. ومن داخل هذا الدير دير القرقس وهو في اعلى جبل قد نقر فيه. ولا يعلم له طريق بل يصعد اليه في نقور في الجبل. ولا يتوصل اليه الا كذلك.[٣]

وكثيراً ما كانت الاديار تُحصَّن بالاسوار الشاهقة وابواب الحديد ، خوفاً من اللصوص والدُّعَّار ، كدير الاسكون بالحيرة.[٤] وعمر مار يونان بالانبار.[٥] وربما ارتفعت جدرانها مئة ذراع ، فيا قيل ، كدير باعربا بين الموصل والحديثة على شاطئ دجلة[٦]. ودونها السور المحيط بدير الزعفران في لحف جبل نصيبين. وقلَّ ان تتخذ ابوابها من الحجر الصلب كدير طورسينا. كان له ثلاثة ابواب حديد. وفي غربيّه باب لطيف. وقدامه حجر اذا ارادوا رفعه رفعوه. واذا قصدهم قاصد ارسلوه فانطبق على الموضع فلم يعرف مكان الباب[٧]. وكدير باطا بالسن بين الموصل وتكريت وهيت. زعموا ان بابه الحجري كان يفتحه الواحد والاثنان.

١) مسالك الابصار ١ :٢٦٩
٢) خطط المقريزي ، مطبعة النيل ، ٤ :٤١٣
٣) خطط المقريزي ، مطبعة النيل ، ٤ :٤١٣
٤) معجم البلدان ٢ :٦٤٣
٥) مسالك الابصار ١ :٢٨٦-٢٨٧
٦) معجم البلدان ٢ :٦٤٥
٧) معجم البلدان ٢ :٦٧٦

فان تجاوزوا السبعة لم يقدروا على فتحه البتة[١] (كذا)

على ان كل هذه الابواب الحديدية والحجرية وكل هذه الاسوار الشاهقة المتوقلة في الجبال لم تكن تحمي الرهبان، على كثرتهم احياناً، من عوادي اللصوص وفتكات الاعراب والاكراد واشباههم من قطاع الطريق. وليس هنا محل تعدادها. ويكفي شاهداً واحداً عليها ما رواه صاحب مرآة الزمان في حوادث سنة ٤٤٩ (١٠٥٧ م) قال:

« فيها صعد عشرون رجلاً من الغز الى دير النصارى في ميافارقين. فيه اربعمائة راهب. فذبحوا منهم مائة وعشرين واشترى الباقون نفوسهم بست مكاكي ذهب وفضة.»[٢]

وكانت القباب بشكلها البيزنطي تعلو بعض الاديار وتستوقف طرف الناظر اليها. ولا سيما اذا كان البناء زاهياً مشرقاً بلون الحمرة كقباب دير يوسف بالموصل. وقد تشوق اليها السري الرفاء مرتين في شعره. فقال في احد اسفاره:

يا دير يوسف، لا عدتك تحية ... للمزن بين رواعد وبوارق،
غراء ضاحكة اليها ثغورها ... ضحك الحبيب الى المحب الوامق.
سقياً لتلك منازلاً معمورة ... من كل مطروق الفناء، وطارق!
حمر القواعد والقباب، كأنما ... أشربن رقراق الخلوق الرائق.[٣]

وله ايضاً من قصيدة قالها، وهو بحلب، يتشوق بها للموصل ودير يوسف:

اعلّ صبوتنا دعاء مشوق ... يرتاح منك الى الهوى الموموق،
هل الطرق العمر بين عصابة ... سلكوا الى اللذات كل طريق؟
ام هل ارى القصر المنيف ممسّكاً ... برداء غيم كالرداء رقيق،
وقلالي الدير التي، لولا النوى، ... لم أرمها بقلى ولا بعقوق،
محمرّة الجدران ينفح طيبها ... فكأنما بنيت بخلوق![٤]

واكثر ما ذكرت هذه القباب في الحيرة والعراق. وهي من الابنية القديمة عرفت منها في الحيرة قبة الشتيق. وقبة غصين الى جانب دير الحريق في الحيرة.

---

١) معجم البلدان ٢: ٦٤٦

٢) مرآة الزمان. خزانة بريتيش موزيوم Or. 4619, f° 241ª

٣) ديوانه. خزانة باريس ٣٠٩٨؛ ص ١٤٧

٤) يتيمة الدهر للثعالبي، طبعة دمشق ١: ٤٨٨

زعم العمري انهما راهبان نُسبتا اليهما . قال وهما بديعتا البناء.[١] وبازائهما قباب اخرى يقال لها الشكورة (او السكورة) ذكرها احد الشعراء. فقال يصف خروج نساء النصارى منها الى قبة السّيق:

والنصارى مشدّدين الزنانير عليهنّ كل حلي وثيق
يتمشّين من قباب الشما نين الى صحن قبة السّيق[٢].

ولبعض الديارات سمعة طائرة بنفاسة البناء، واحكام الصنعة، وبلوغ النهاية في الزينة والبهاء. منها دير الرصافة رصافة هشام. قال ياقوت: « رأيته وهو من عجائب الدنيا حسناً وعمارة.»[٣] وكانت هياكلها وقلاليها وارضها مؤزّرة مفروشة بانواع المرمر وضروب الرخام المجزّع. مزوّقة الجدران والسقوف باشكال النقوش والفصوص المذهبة . ومن الغريب انه لم يتفق لاحد الشعراء او مؤلّفي الديارات وصف شيء من افانين الفسيفساء على كثرتها وشيوعها في الشام ومصر والعراق. قال ياقوت: « وكان اهل ثلاث بيوتات يتبارون في البيع وزينتها . اهل المنذر بالحيرة. وغسان بالشام. وبنو الحارث بن كعب بنجران. وبنوا دياراتهم في المواضع النزهة الكثيرة الشجر والرياض والغدران . ويجعلون في حيطانها الفسافس وفي سقوفها الذهب والصور.»[٤]

ومنها دير نجران « بناه بنو عبد المدان بن الديّان . بنوه مربعاً مستوي الاضلاع والاقطار. مرتفعاً عن الارض. يصعد اليه بدرجة على مثال بناء الكعبة. فكانوا يحجّونه هم وطوائف من العرب. ولذلك سمّاه الاعشى كعبة نجران بقوله يخاطب ناقته ، مشيراً الى بني عبد المدان:

وكعبة نجران حتمٌ عليـك حتى تناخي بابوابها[٤]

وليس لدينا اقلّ اشارة الى ما كان في كنائس الاديار من المصاحف الثمينة وطرائف الآنية والزينة . وغاية ما روي في هذا الباب ان الدير الاعلى فوق الموصل لم يكن للنصارى دير مثله « لما فيه من اناجيلهم ومتعبداتهم.»[٥] ولكن

---

١) مسالك الابصار ١: ٢١٥
٢) كتاب الديارات للشابشتي ، ١٠٥-١٠٦
٣) معجم البلدان ٢: ٦٦٠-٦٦١
٤) معجم البلدان ٢: ٧٠٣
٥) معجم البلدان ٢: ٦٤٤

اذا تذكرنا ان معظم هـذه الديارات كان مبنياً قبـل الاسلام في عهد الرومانيين والبيزنطيين ، تيسّر لنا تصوّر ما كان مجتمعاً فيها مصوناً في خزائنها من الذخائر والاعلاق النفيسة ، ومصوغات الذهب والفضة. ولا سيما ان طائفة منها كانت من بناء القياصرة والملوك . وقد رووا عن النعمان بن المنذر ملك الحيرة انه ، لما بنى دير هند الصغرى ، « كان يصلّي به ويتقرّب فيه . وانه علّق في هيكله خمس مئة قنديل من ذهب وفضة. وكانت ادهانها في اعياده من زنبق وبان وما شاكلها من الادهان. ويوقد فيه من العود الهندي والعنبر شيء يجلّ عن الوصف».[1] وكانت بيعة اباهور في دير سرياقوس بمصر «مُثرية بفضة قناديلها وذهب صلبانها.»[2] ولها نظائر كثيرة في جميع ديارات الشام ومصر والعراق لا سبيل الى تعدادها.

وقد ولع الشعراء منذ الجاهلية بذكر الدُمى والصور في البيع والاديار وتشبيه الحسان بها . وهي كانت اما محفورة منقوشة بانواع الاصبغة والادهان . واما مرسومة بازهى الالوان. ذكروا ان دير باعنتل من جوسية من اعمال حمص كان فيه عجائب « منها آزج ابواب فيها صور الانبياء محفورة منقوشة فيها. وهيكل مفروش بالمرمر لا تستقر عليه القدم. وصورة مريم في حائط منتصبة كلما ملت الى ناحية كانت عينك اليها.»[3] واشتهرت ايضاً في دير القُصَير في ذروة جبل شهران في ضاحية مصر « صورة مريم في حجرها المسيح في غاية اتقان الصنعة . وكان خمارويه بن احمد بن طولون يكثر غشيانه وتعجبه تلك الصورة ويشرب عليها.»[4] وقد وصفها محمد بن عاصم بقوله :

صورة من مصوّر فيه ظلّت فتنة للقلوب والابصار ،
اطربتنا بغير شدو ، فاغنت عن سماع العيدان والمزمار ،
يفتر الجسم ، حين ترميه حسناً بفنون من طرفها السحّار ،
واشاراتها الى من رآها بخضوع وذلة وانكسار.
لا وحسن العينين ، والشفة اللميـاء منها ، وخدها الجلناري ،

١) مسالك الابصار ، ص ٣٢٢ ٢) مسالك الابصار ، ص ٣٦٠
٣) معجم البلدان ٢ : ٦٨٥
٤) الديارات للشابشتي ١٢٦

لا تخافتُ عن مزاري لدير هي فيه، ولو نأى بي مزاري(١

ولعل صورة دير مار سرجس كانت ايضاً تمثل العذرآء. «حكى عبدالله الربيعي قال: دخلت انا وابو النصر البصري مولى بني جمح بيعة مار سرجس وقد ركبنا مع المعتصم نتصيّد. فوقفت انظر الى جارية كنت اهواها. وجعل هو ينظر الى صورة في البيعة استحسنها حتى طال ذلك. ثم قال ابو النصر:

فتنتنا صورة في بيعةٍ فتن الله الذي صوَّرها!
زادها الناقش في تحسينها فضل حسن انه نضَّرها؛
وجهها، لا شك عندي، فتنة وكذا هي عند من ابصرها،
انا للقس عليها حاسد؛ ليت غيري عبثاً كسَّرها! (٢

وفي هذا التمني الاخير، بعد الاعجاب الاول، موضع استغراب واعتبار.

ومن نفائس الصور التي اشتهرت بقدمها وصبرها على عوادي الزمن، وجمالها واتقانها، وزهاء الوانها، صورة دير الباعوث على شاطئ الفرات. كانت في هيكله «دقيقة الصنعة عجيبة الحسن. يقال ان لها مئين من السنين لم تتغير اصباغها ولا حالت الوانها.»[٣]

وذكروا ان بدير ابا يوسف، فوق الموصل، عجائب من بدائع التصوير[٤]. وروى الخالدي انه كان في هيكل دير مرّان بدمشق صورة عجيبة دقيقة المعاني[٥]. ونقل ياقوت مثل ذلك في دير مار ماعوث على شاطئ الفرات وقال: في صدره صورة حسنة عجيبة[٦]. ولما زار العمري دير المصلّبة بظاهر القدس، رأى فيها صوراً يونانية في غاية من محاسن التصوير[٧].

وبالاجمال لم يكن دير من الاديار يخلو من امثال هذه الصور اليونانية البيزنطية «فتنة للقلوب والابصار» كما تقدم من وصف محمد بن عاصم لها. ولا يخفى ما اصاب تاريخ الفنون الشرقية بضياعها، وفقدها، واحراقها في الفتن والمظالم، من الخسارة الشديدة التي يُناح عليها ويُبكى.

١) الديارات للشابشتي، ١٣٦ ٢) مسالك الابصار، ٢٧٤
٣) مسالك الابصار، ٢٦٣ ٤) مسالك الابصار، ٣٠٢
٥) معجم البلدان ٢: ٦٩١ ٦) معجم البلدان ٢: ٧٠٠
٧) مسالك الابصار، ٣٢٩

القلاليّ والأُكَيْراح

في تاج العروس ان القلّية بالكسر وشدّ اللام شبه الصومعة . ومنه كتاب عمر (رضه) لنصارى الشام لما صالحهم ان لا يحدثوا كنيسة ولا قلّية . وهي القَلَّاية عند النصارى معرّب كَلَّاذة (كذا)[1] . والصواب انها مأخوذة من اللفظة اليونانية κελλίον

وتجمع القلّية على قلاليّ بالتشديد مثل علّية وعلاليّ . وقد تخفّف الياء . ومنه قول العمري في كلامه على دير الكلب « وقلاليه مبنيّة بعضها فوق بعض . »[2] ونظيره بيت ابي بكر الخالدي:

منادماً في قلاليه رهابنةً ... راحت خلائقهم اصفى من الراح[3]

وللسريّ الرفّاء في دير سعيد ، بالجانب الغربي من الموصل ، ابيات قال فيها :

ام هل ارى القصر المنيف مستّماً ... برداء غيم كالرداء رقيق

وقلاليَ الدير الذي ، لولا النوى ، ... لم أرنها بقلًى ولا بعقوق[4]

وربما تُجوِّز بحذف الياء والاستعاضة عنها بالتنوين . ومنه قول صاحب مسالك الابصار في دير سعيد « حوله قلالٍ كثيرة . »[5] ولاحد الشعراء في دير ابون:

سقى الله ذاك الدير غيثاً لاهله ... وما قد حواه من قلالٍ ورهبان[6]

وقد غلب في الاستعمال لفظ قلَّاية على ضعفه . وورد كثيراً في الشابشتي والعمري وسائر كتب الديارات . واشتهر في الحيرة بناء كالدير عُرِف بقلاية القس وفيها يقول الثرواني :

خليليّ من تيم وعجل ، هديتما ! ... أضيفا بحثّ الكأس يومي الى امسي

وان انتما حيّيتماني تحيّةً ، ... فلا تعدُوَا ريحان قلّاية القسّ[7]

---

١) تاج العروس ٨ : ٨٦

٢) مسالك الابصار ، ٢٥٤

٣) يتيمة الدهر للثعالبي ، طبعة دمشق ، ١ : ٥١٢

٤) مسالك الابصار ، ٢٩٣

٥) مسالك الابصار ، ٢٨٩

٦) معجم البلدان ٢ : ٦٤٠

٧) معجم البلدان ٤ : ١٥٦

وفي ضبط لفظ القلاية خلاف بين الشعراء. فرواها التعاويذي بكسر القاف وتخفيف اللام في بيت له في صفة الخمر قال فيه :

من عَتاد الرهبان لم يخلُ معسر الدهر منها قلاية الجاثليق(١

وحكى البكري فتح القاف وتخفيف اللام وتشديدها ايضاً في البيت المعروف :

قلاية القسّ ، مالي عنك مصطبرُ ومن الى من لحاه فيك يعتذر(٢

وروى الخفاجي انه في زمانه (القرن الحادي عشر للهجرة والسابع عشر للمسيح) كان يقال للقلّية قلة غلطاً . قال : «ومعابد النصارى ومساكن الرهبان منها كنائس وهي ما يعدّونه للعبادة . وهي معروفة الآن . ومنها دير وقلية وصومعة . فما كان خارج البلدان والقرى ان كان فيه حجرات ومرافق فهو دير . واما القلاية وجمعها قلايا فهي بناء مرتفع كالمنارة تكون لراهب ينفرد فيها . وقد لا يكون لها باب ظاهر . والصومعة دونها وهي معروفة . كذا في كتاب الكنائس.»(٣

وقد فاته ان ينبه على مؤلف هذا الكتاب . ولم نجد له ذكرًا في كشف الظنون . فلا ندري من اي عصر شهادته . ولا شك ان القلالي كانت تكون ايضاً داخل الديارات تطلق على الحجرات فيها وغرف الرهبان ، كما تعرف بها اليوم . وقد تقدّم من كلام ياقوت الرومي ان الاديار كانت اكثر ما ترى في ظواهر البلاد . ولكن لدينا شواهد كثيرة على وجود جانب منها غير قليل في داخل المدن . وفيها القلالي كما في الزمن الحاضر .

وكانت القلالي التي في الضواحي تُقام قديماً في جوار الاديار . ولكل راهب من المنتسبين اليها قلّية خاصة يفصلها عن الدير وعما جاورها بستان فيه اصناف الاشجار والثمار والبقول والرياحين . يهتمّ الراهب بزراعتها والقيام عليها ، ويرتزق ببيع غلّتها . واشتهر بهذا الوضع دير قُنّى قريباً من بغداد . كان فيه مئة قلية لرهبانه والمتبتلين فيه . وعمر كسكر اسفل من واسط . كان حوله قلّيات

---

١) ديوانه ، ص ٣٠٨
٢) معجم ما استعجم للبكري ، ٢٦١
٣) شفاء الغليل ، ١٨٦–١٩٠

كبيرة قد انفرد كل راهب بواحدة منها. ويحيط بالموضع بساتين كثيرة[١]. وكان الرهبان يتبايعون هذه القلالي بينهم من الف دينار الى مائتي دينار الى خمسين دينارًا[٢]. ولا ريب ان الاثمان كانت تختلف باختلاف المواقع، واتقان البناء، واتساع البساتين، وارتفاع الغلال. واهمها غلة النخل والزيتون والكرم. وكانت هذه الغلّة تتشذر تباع من مائتي دينار الى خمسين دينارًا.[٣]

ومن الديارات التي عُرفت بكثرة قلاليها دير الزعفران بنصيبين[٤]. ودير سعيد بجانب الموصل[٥]. ودير مريحنا الى جانب تكريت على دجلة[٦] وعمر يونان بالانبار[٧]. وامتاز دير الكلبَ قرب معلثايا من نواحي الموصل ببناء قلاليه بعضها فوق بعض في صعود الجبل. فمنظرها احسن منظر[٨]. ومثلها قلالي دير الزعفران. كان بناؤها متراصفاً باحسن وصف واملح تكوين. وله سور يحيط به[٩].

وكان بعض هذه القلالي لا يخلو من النفاسة والتأنق والزخرفة كالقلية التي زارها ابو الفرج البيناء في دير مرّان بدمشق وشاهد في صحنها « بيتاً فضيّ الحيطان برخاميّ الاركان. يضم طارمة خيش مفروشة بحصير مستعمل.»[١٠] وهذا غاية ما وقفنا عليه من وصف بنائها وتعريف ما كانت تشتمل عليه. وهو ما يدل على انها لم تكن مقتصرة على حجرة واحدة. وكان اكثرها مرتفعاً يُشرف على ما حوله من الجنان والرياض والغدران. ولذلك كان عشّاق الصهباء من المسلمين يؤثرون الشرب على سطحها للتمتع بجمال مُطلّها، ونضارة ما تتناوله العيون من

---

١) كتاب الديارات للشابشتي، ١٢٠

٢ و٣) كتاب الديارات للشابشتي، ١١٥-١١٦

٤) مسالك الابصار، ٢٥٥

٥) مسالك الابصار، ٢٨٩

٦) مسالك الابصار، ٣٠٩

٧) مسالك الابصار، ٢٨٦

٨) مسالك الابصار، ٢٥٤

٩) مسالك الابصار، ٢٥٥

١٠) اليتيمة للثعالبي، طبعة مصر، ١: ٢٠٤ وفي المتن المطبوع: « طارقة خيش »، وهو تصحيف.

نِطاقها[١]. ومن تعدت به الحال عن تحصيل قلّة منها او ابتياعها كان يتخذ له بيتاً ضيقاً يقال له الكِرح.

والكِرح بالكسر بيت الراهب والجمع أكراح[٢]. ولم يفسّرها في اللسان. ومن الغريب ان الجمع لم يأتِ الا بصيغة التصغير «أُكَيراح» قال: وهي بيوت ومواضع تخرج اليها النصارى في بعض اعيادهم وهو معروف[٣]. وروى الخالدي ان «الأُكَيراح بيوت صغار تسكنها الرهبان الذين لا قلاليّ لهم. يقال لواحدها كِرح.»[٤] والصحيح ان اللفظة سريانية ܟܘܪܚܐ ومعناها الكوخ الصغير.

واشهر بئيل هذه الأُكيراح دير حنة، بظاهر الكوفة، في بقعة كثيرة البساتين والرياض. وفيه يقول ابو نواس مشيرًا الى راهباته الحسان:

يا دير حنة من ذات الأُكيراح، من يصحُ عنك، فاني لست بالصاحي!
رأيت فيك ظباء لا قرون لها يلعبن منا بالباب وارواح[٥]

وله ايضاً فيه

دع البساتين من آسٍ وتفاح، واعدل، هُديت الى دير الأُكيراح[٦]

والظاهر ان هذه البيوت والأكواخ كانت مختصة بديارات الحيرة والعراق وحدها، لاننا لم نجد لها ذكرًا آخر في ديارات مصر والشام.

---

١) مسالك الابصار، ٢١٥ و٢١٦ و٢١٨
٢) تاج العروس ٢: ٢١١
٣) لسان العرب ٣: ٤٠٥
٤) معجم البلدان ١: ٣٤٥
٥) ديوان ابي نواس. باريس ١٨٣٩، ١: ١٦٠
٦) ديوان ابي نواس. الفاتيكان ٤٥٦، ص ١٠٠، وهذا البيت منسوب ايضا لبكر ابن خارجة باختلاف قليل في العجز (معجم ما استعجم للبكري، ص ٣٧٢-٣٧٣)

القائم في الديارات

وردت هذه اللفظة في كتب الديارات ولم تُشر اليها معاجم اللغة . ذكرها ابو الفرج الاصبهاني في تعريفه دير حنة بظاهر الكوفة . قال: « وهو دير قديم بناه حيٌّ من تنوخ يقال لهم بنو ساطع . تحاذيه منارة عالية كالمرقب تسمّى القائم. »[١] والى هذا القائم اشار الثرواني بقوله :

يا دير حنة ، عند القائم الساقي ، الى الخورنق من دير ابن برّاق[٢]

وربما اشتهر الدير بقائمه ، كدير القائم الاقصى على شاطئ الفرات ، من الجانب الغربي ، في طريق الرقة من بغداد . قال ابو الفرج ايضاً : « وقد رأيته . وانما قيل له القائم لان عنده مرقباً عالياً كان بين الروم والفرس . يُرقب عليه على طرف الحدّ بين المملكتين شبه تل عقرقوف ببغداد . واصبع خفّان بظهر الكوفة[٣] . . . وبهذا الدير مرّ اسحق الموصلي لما خرج مع الرشيد وطاف به . ورأى فيه راهبة حسناء عليها المسوح فقال فيها :

بدير القائم الاقصى ، غزال شادن احوى[٤]

فالقائم على ذلك هو المرقب كان يُقام بين الروم والفرس . ولكن هنالك اديارا اخرى في الاسلام للملكانية واليعقوبية كانت معروفة ايضاً بقائمها ، وليس فيها صفة المرقب . منها دير التيّارة لليعقوبية على اربعة فراسخ من الموصل في الجانب الغربي من اعمال الحديثة . قال الشابشتي : « وكل دير لليعقوبية والملكانية فعنده قائم . وديارات النسطورية لا قائم لها . »[٥] فالقائم اذن لم يكن مرقباً فقط . ولعلّ اوجه ما يقال فيه انه كان شبه صومعة كانت تتخذ الى جانب بعض الاديار لسكنى احد النساك المعتزلين فيها كالصومعة التي اقاما على باب دير مر يحنّاً ، الى جانب تكريت ، عبدون الراهب وهو رجل من الملكية ونزلها ، فصارت تعرف به[٦] .

---

١) معجم ما استعجم للبكري ، ٣٧٢ ٢) معجم البلدان ١ : ٢٤٥

٣) معجم البلدان ٢ : ٦٨٤ ٤) مسالك الابصار ، ٢٦٩-٢٧٠

٥) كتاب الديارات للشابشتي ، ١٣٢

٦) كتاب الديارات للشابشتي ، ٧٣

اديار النساء

لم يُعنَ احد من تكلم على الديارات بتعداد ما كان منها للنسوة المتبتلات والجواري الرواهب . وانما اشاروا الى قسم منها عَرَضاً وفي شجون الحديث . وليس بين اسمائها الّا ديران فقط تدلّ تسميتها صريحًا على جنسها ونسبتها . وهما دير الخُوات ، ودير العذارى. وقد استقرينا كل الاخبار والاشعار المرويّة ولم نجد بينها الا تسعة عشر فقط يصحّ اثباتها وافرازها للاناث وهي:

١ دير الخُوات بعكبرا . « وهو دير كبير عامر يسكنه نساء مترهبات متبتلات فيه . »[1] ولفظة الخوات تحريف الأَخوات. وفي هذا الدير كانت تكون، فيما زعم بعض السفهاء المتقوّلين، ليلة الماشرش . وسنفرد للاشارة اليها وتزييف تهمتها فصلًا نثبت فيه بطلان هذه القالة الشنعاء بشهادة بعض كتبة الاسلام.

٢ دير العذارى بين سرّ من رأى وبغداد. قال الخالدي: وشاهدته. وبه نسوة عذارى[2]. وروى العمري انه « كانت حوله حانات للخمارين وبساتين ومتنزّهات. لا يعدم من دخله ان يرى من رواهبه جواري حسان الوجوه والقدود والالحاظ والالفاظ. »[3]

٣ دير العذارى في قطيعة النصارى ببغداد[4].

٤ دير العذارى بالحيرة[4].

٥ دير القائم بالرقة. كان فيه، فيما يظهر، مساكن للعذارى. حكى اسحق ابن ابرهيم الموصلي قال:

« خرجنا مع الرشيد نريد الرقة. فلما صرنا بالموضع الذي يقال له القائم نزلنا وخرج يتصيد وخرجنا معه. فابعد في طلب الصيد. ولاح لي دير فقصدته. . . فنزل صاحبه ففتح الباب. . . وعرض عليّ الطعام فأجبته . فقدم لي طعاماً من طعام

١) كتاب الديارات للشابشتي ، ٢٨

٢) معجم البلدان ٢ : ٦٧٦

٣) مسالك الابصار ، ٢٥٨

٤) معجم البلدان ٢ : ٦٨٠

الديارات نظيفاً طيباً. فاكلت منه. واتاني بشراب وريحان فشربت منه. ووكل بي جارية تخدمني راهبة لم ارَ احسن منها ولا اشكل. فشربت حتى سكرت. ونمت وانتبهت عشاء. فقلت في ذلك:

بدير القائم الاقصى ، غزال شادن احوى ،
برى حبي له جسمي ، ولا يعلم ما القى ؛
واكتم حبه جهدي ولا ، والله ، ما يخفى .

وركبت فلحقت بالمعسكر. والرشيد قد جلس للشرب وطلبني فلم أُوجد. وأُخبرت بذلك. فغنيت بالابيات ودخلت اليه. فقال لي اين كنت ويحك. فاخبرته الخبر وغنيته الصوت. فطرب وشرب عليه حتى سكر. وأخّر الرحيل في غد. ومضينا الى الدير ونزله. فرأى الشيخ واستنطقه. ورأى الجارية التي كانت تخدمني بالامس فدعا بطعام خفيف فاصاب منه. ودعا بالشراب وامر الجارية التي كانت بالامس تخدمني ان تتولى خدمته وسقيه ففعلت. وشرب حتى طابت نفسه. ثم امر للدير بالف دينار وامر باحتمال خراجه له سبع سنين.»[١]

٦ دير العَلْث على شاطئ دجلة من الجانب الشرقي. وقد صرّح جحظة البرمكي في شعر قاله فيه انه كان فيه عذارى لابسات المسوح. وهذه ابياته:

ايها الحاذقان بالله ، جُدّا وأصلحا لي الشراع والسكانا . .
واحطّا لي الشراع بالدير، بالعلـث ، لعلّي اعاشر الرهبانا ،
وظباء يتلون سفرًا من الانجيل ، باكرن ، سحرة قربانا .
لابسات من المسوح ثياباً جمل الله تحتها اغصانا
خَفِرات، حتى اذا دارت الكأس ، كشفن النحور والصلبانا [٢]

٧ دير مارت مروثا. في سفح جبل جوشن مطلّ على مدينة حلب. قال الخالدي: هو صغير وفيه مسكنان احدهما للنساء. والآخر للرجال. ولذلك سمي بالبيعتين. وقلّما مرّ به سيف الدولة الا نزل به[٣]. وكان في زمان ياقوت قد خرب ودرست آثاره.

١) الاغاني ، طبعة بولاق ، ٥ : ١٢٢-١٢٤
٢) معجم البلدان ٣ : ٦٨١
٣) مسالك الابصار ، ٢٤٩-٢٥٠

٨ دير صليبا بدمشق مطلّ على الغوطة. يُعرف بدير السائفة. والى جانبه دير للنساء. وهما في الارجح الديران اللذان ارادهما جرير بقوله:

اذا تذكّرت بالديرين ، أرّقني صوت الدجاج وقرع بالنواقيس[١]

٩ دير مرّان في سفح جبل قاسيون بدمشق. يظهر انه كان فيه مساكن للرواهب في جوار مساكن الرهبان. وهو ما يؤخذ من قصيدة لعون الدين بن العجمي (٦٠٦-٦٥٦ للهجرة = ١٢٠٩/١٠-١٢٥٨) قالها يمدح بها الملك الناصر صلاح الدين. ومنها هذه الابيات:

يا سائقاً يقطع البيداء ، مجتنفاً ، بضامرٍ لم يكن في سيره واني ،
ان جزت بالشام، شِم تلك البروق، ولا تعدل ، بلغت المنى ، عن دير مرّان.
واقصد اعالي قلاليه تلاقِ بها ما تشتهي النفس من حور وولدان ،
من كل بيضاء، هيفاء القوام ، اذا ماست ، فيا خجلة المرّان والبان!
وكل اسمر قد دان الجمال له وكمّل الحسن فيه فرط احسان[٢]

١٠ دير هند الصغرى بالحيرة. وهي هند بنت الملك النعمان بن المنذر «ترهّبت فيه وسكنته وعاشت دهرًا طويلاً. ثم عميت. وهذا الدير من اعظم ديارات الحيرة واعمرها. وفيه زارها الحجاج المشهور. وقبله سعد بن وقّاص حين فتح العراق. والمغيرة لما ولاه معاوية الكوفة. وخطبها المغيرة حباً بالشرف بها فاجابته: اي فخر في اجتماع اعور وعمياء..»[٣]

١١ دير هند الكبرى بالحيرة ايضاً. بنته هند ام عمرو بن هند. وهي هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار الكندي. وكان في صدره مكتوباً: «بَنَت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر الملكة بنت الاملاك. وام الملك عمرو بن المنذر. أَمَة المسيح وام عبده وبنت عبيده. في مُلك مَلِك الاملاك خسرو انوشروان في زمن مار افريم الاسقف. فالاله الذي بنت له هذا الدير يغفر خطيئتها ويترحم عليها وعلى ولدها. ويُقبل بها وبقومها الى امانة الحق. ويكون الله معها ومع ولدها الدهر الداهر.»[٤]

١) مسالك الابصار ، ٢٤٦-٢٥٠.

٢) فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ١: ٢٢٥-٢٢٦

٣) ديارات الشابشتي ، ١٠٦-١٠٧ ٤) معجم البلدان ٢: ٧٠٩

١٢ دير مارت مريم بالحيرة . مرَّ به اسحق بن ابرهيم الموصلي لما خرج الى النجف مع الواثق . فقال فيه :

نعم المحلّ لمن يسعى للذّته ... دير لمريم ، فوق الظهر ، معمور .
ظلٌّ ظليل ، وماء غير ذي اسن ، ... وقاصرات كامثال الدمى حور .[١]

وقد روى ياقوت هذين البيتين وذكر غلطاً ان الدير بنواحي الشام[٢] .

١٣ دير النساء الى جانب كنيسة مريم بدمشق . وهو الذي نهبه ثُوَّار المسلمين في نصف رجب سنة ٣١٢ (١٧ ت ١ ٩٢٤) حين هدموا كنيسة مريم[٣]

١٤ دير حنة بظاهر الكوفة . يؤخذ من ابيات فيه لابي نواس انه كان فيه عذارى مترهبات ، وهو قوله يخاطبه مشيراً الى من فيه من الجواري المتبتلات :

رأيت فيكَ ظباءً لا قرون لها ... يلعبن منا بألباب وارواح[٤]

١٥ دير يوسف بالموصل وصف السريّ الرفّاء راهباته وكنى عنهنَّ بالدُّمى النواطق قال :

كم دِمنة خرساء فيه ودُمية ... فضّلت عليها باللسان الناطق[٥]

١٦ دير البنات مشرف على ارض طرابلس . زاره الشاعر الطيبي « ورأى فيه كل عذراء تُدهش المتحيّر وتُحيّر المتخيّر .»[٦]

١٧ دير الراهبات بحارة زويلة من القاهرة .

١٨ دير البنات بحارة الروم بالقاهرة .

١٩ دير المعلقة بمدينة مصر . وكان اشهر ديارات النساء .

وهذه الاديار الثلاثة الاخيرة كانت في زمان المقريزي (١٣٦٥—١٤٤١ م) عامرة بالنساء المترهبات[٧] .

ولا شك انه كان هنالك اديرة اخرى للراهبات لا سبيل لنا اليوم لتعيينها لعدم الاشارة اليها صريحاً في الاصول التي لدينا .

---

١) الاغاني ، طبعة بولاق ، ٥ : ١٢٨ ٢) معجم البلدان ٢ : ٦٩٣
٣) تاريخ ابن بطريق ٢ : ٨٣ ٤) ديوان ابي نواس . باريس ١٨٢٩ ، ١٦٠ : ١٦٠
٥) ديوانه باريس ٣٠٩٨ ، ص ١٤٧
٦) مسالك الابصار ، ٣٣٤
٧) الخطط ، مطبعة النيل ، ٤ : ٤٢١ .

الاديار التي كان ينزلها الخلفاء والملوك والامراء ووجوه الدولة

من اقدمها ذكرًا واعظمها مصرًا دير مُرَّان بدمشق. كان يزيد بن معاوية ثاني الخلفاء الامويين قد اتخذه وطنًا له ومتنزّهًا . وفيه قال، وهو وليّ العهد، بيتيه المشهورين لما سيّر معاوية جيشًا كثيفًا الى بلاد الروم للغزاة . وامر ابنه بالمسير معهم . فتثاقل واعتلّ . واصاب الناسَ في غزاتهم جوع ومرض شديد فانشأ يزيد يقول:

ما ان أُبالي بما لاقت جموعهم بالغذقدونة من حُمّى ومن موم
اذا اتكأت على الانماط مرتفقًا بدير مُرّان عندي ام كلثوم(١

وتوله ايضًا بعده جماعة من الخلفاء من الامويين والعباسيين(٢. ومثله دير صليبا مقابل باب الفراديس بدمشق كان الوليد بن يزيد كثير المقام به يخرج اليه ومعه حُرَمه استحسانًا له(٣. ودير بُونّا (يوحنا) بجانب غوطة دمشق اقام الوليد بن يزيد فيه اياما في تخرُّق ومجون(٤. ودير الرصافة رصافة هشام بن عبد الملك وفيه قيل:

ليالي هشام بالرصافة قاطن وفيك ابنه ، يا دير، وهو امير(٥

ودير السوسي على شاطىء دجلة. ولابن المعتز فيه:

يا لياليّ بالمطيرة والكرخ ودير السوسيّ بالله عودي(٦

---

١) قال ياقوت: الغذقدونة هو اسم جامع للثغر الذي منه المصّيصة وطرسوس وغيرهما ويقال له غذقدونة (معجم البلدان ٣: ٧٧٧) والاظهر انه خلقدونة Chalcédoine وروى البكري في معجم ما استعجم (ص ٣٧٦) هذين البيتين في دير سمعان وان يزيدًا اقام به ووجّه الجيوش لغزو الروم . وهي غزاة الطوانة Teane ولذلك روى عجز البيت الاول « يوم الطوانة من حمى ومن موم » والاصح ما ذكرناه بدير مران .

٢) مسالك الابصار ٣٥٥

٣) مسالك الابصار ٣٤٩

٤) مسالك الابصار ٣٥١

٥) مسالك الابصار ٣٣٦

٦) ديارات الشابشتي ٦٤

ودير عبدون. وفيه لابن المعتز ايضاً:

سقى الجزيرة ذات الظل والشجر ودير عبدون هطّالٌ من المطرِ
يا طالما نبّهتني للصبوح به في ظلمة الليل والعصفور لم يَطِرِ
اصوات رهبان دير في صلاتهم سود المدارع نعّارين في السحرِ[١]

ودير مرمار (مار ماري) بسرّ من رأى. قال الفضل بن العباس بن المأمون «كنت مع المعتز في الصيد فانقطعنا عن الموكب. هو وانا ويونس بن بُغا. ونظرنا الى دير فيه ديرانيّ يعرفني واعرفه. مليح ظريف. فشكا المعتز العطش. فقلت هنا ديراني ظريف مليح. فقال مُرَّ بنا. فجئنا فخرج الينا واخرج الينا ماء باردًا. وسألني عن المعتز ويونس. فقلت فتيان من ابناء الجند. فقال لي تأكلون شيئاً. فقلنا نعم. فاخرج لنا الطف شيء في الدنيا وأكلنا اطيب أكل. وجاءنا باطيب أشنان واحسن آلة. فاستظرفه المعتز وقال لي قل له بينك وبينه: من تحب ان يكون معك من هذين لا يفارقك. فقلت له. فقال كلاهما وتمرًا. فضحك المعتز حتى مال على الحائط. فقلت للديراني لا بد ان تختار. فقال الاختيار والله في هذا دمار ما خلق الله عقلًا يميز بين هذين. ولحقنا الموكب فارتاع الديراني. فقال له المعتز بحياتي لا تنقطع عما كنا فيه. وفرحنا ساعة. ثم امر له بخمس مائة الف درهم. فقال لا والله. لا قبلتها الا على شريطة. قال ما هي. قال يجيب امير المؤمنين دعوتي مع من اراد. فقال ذلك لك. فوعدناه ليوم وجئناه فانفق علينا المال كله. فوصله المعتز بمثله وانصرفنا.»[٢]

ومن دواعي الاسف ان لا يكون انتهى الينا وصف هذه الدعوة بالكمال والتفصيل لنعلم كيف كانت تكون مثل هذه الولائم الخليفية في مثل الاديار النصرانية.

ومن اديار الملوك ايضاً دير زكّى بالرقة «كانت الملوك اذا اجتازت به نزلته

١) ديوان ابن المعتز. باريس ٣٠٧٨، ص ١٠٥ وفي معجم البلدان لياقوت: سقى المطيرة بدلًا من الجزيرة

٢) جزء من تاريخ بغداد للخطيب. باريس ٢١٣١، ص ١٤١، والاغاني ٨: ١٨٥

واقامت فيه لانه يجتمع فيه كل ما يريدونه من عمارته ونفاسة ابنيته وطيب المواضع به.»[١]

ومنها عمر سرتونان (مار يونان) بالانبار. كان «من اجتاز بالانبار من الخلفاء. ومن دونهم ينزله مدة مقامه.»[٢]

ومنها دير مار مروثا في سفح جبل جوشن مطل على مدينة حلب. قال الخالدي: وقلما مرّ به سيف الدولة الا نزل به. وكان يقول كانت والدتي محسنة الى اهله وتوصيني به[٣]. ومثله دير باعربا بين الموصل والحديثة. نزل سيف الدولة فيه[٤].

ومنها دير الاعلى بالموصل «من اجتاز بالموصل من الولاة نزله».[٥]

واهم ديارات مصر التي كانت مألفاً للملوك والامراء. ووجوه العمّال والولاة وابناء الخلفاء. دير القُصَيْر اعظم اديار الروم الملكيين واجملها مُستشرفاً وموقعاً في قنة الجبل المطلّ على قرية شهران من قرى مصر البائدة. وكان احمد بن طولون امير مصر كثيراً ما يطرقه ويخلو في بعض قلاليه[٦]. وجرى على أثره ابنه ابو الجيش خمارويه. وكان شديد الإعجاب بصورة فيه بالفسيفساء للعذراء. فكان يكثر غشيان الدير للشرب على وجهها. وبنى له فيه غرفة لها اربع طاقات يجلس فيها[٧]. ومن الامراء الشعراء، الذين كانوا لا يفارقون الدير للقصف فيه والتنزه، الامير تميم بن المعز لدين الله الخليفة الفاطمي. وله فيه قصائد ومقطعات قال في بعضها:

ومن كان محبوساً على حب لذّة   فاني على دير القُصَيْر حبيس[٨]

---

١) ديارات الشابشتي ٩٥ و٩٨
٢) ديارات الشابشتي ١١٢
٣) معجم البلدان، طبعة مصر ١٩٠٦، ٤: ١٦٨
٤) مسالك الابصار ٣٠١
٥) ديارات الشابشتي ٧٥
٦) سيرة احمد بن طولون للبلوي، رقم ٣٤٢ من مخطوطات دار الكتب الاهلية الظاهرية بدمشق، الورقة ٣٤
٧) ديارات الشابشتي ١٢٥
٨) ديوانه. خزانة ليدن Arabe 2038

واشتهر في دولة المماليك الامير سيباي العلّاني الاشرفي بكثرة الخروج للصيد والاقامة من اجله في بعض الاديار . قال السخاوي :«كانت عليه رواتب لبعض ديور النصارى محتجًا بقصد من يرد عليهم من المسلمين خصوصاً . وهو يكثر الخروج للصيد ويقيم عندهم فيها . ولم يزل في غزّ الى ان قتل في ليلة الجمعة ثالث رجب سنة خمس وثمانين (وثمانمائة) = (١٤٥٤ م) بخيّمه على شاطئ النيل قريباً من طما من اعمال اسيوط .»[1]

وندر ان يكون دير في الاسلام من الديارات المشهورة لم يعرّج عليه الخلفاء والملوك في غزواتهم وتنقلاتهم ، ولا سيا في اسفارهم الى الشام ورجوعهم منه الى العراق .

---

١) الثاني من الضوء اللامع . الخزانة التيمورية ص ٥٢٩

مزروعات الاديار والقلالي

تقدم ان مساكن الرهبان كانت دائماً محفوفة بالبساتين والرياض. فلم تكن قلية تخلو، الّا فيما شذّ وندر، من حديقة او جُنينة يقضي الراهب فيها قسماً من نهاره بين اشجاره وازهاره. وكانت المزروعات تتنوّع تنوّع الامصار والاتربة. وتكثر او تقلّ حسب مستغلّها ورواج مبيعه في حاجات الدير. فكانت الكروم من ثم اوفرها انتشاراً واوسعها بقاعاً للصيت الطائر الذي كان لخمور الاديار في الاسلام. وشدة الرغبة فيها والاتجار بها في كل البلدان. لحذق خماري النصارى باعتصارها. وتميزهم بنظافة الآنية وحسن الملبس والاجادة في اختيار انواع الاشربة وتعتيقها. وغلب في الحيرة والعراق النخل مع الكروم. ولا يبعد أن يكون الرهبان فيهما تعودوا ايضاً اتخاذ نبيذ التمر وهو الدوشاب والفضيخ. ويظهر ان الزيتون ايضاً كان غير قليل فيهما وفي جهات نصيبين.[1] واشتهر دير الزعفران على رأس الجبل المطلّ على نصيبين، في ما عدا زعفرانه وريحانه، بجنات فيه مملوءة بشجر البندق والفستق واللوز الفرك والزيتون والبطم.[2] وعُرف دير الكلب في سفح جبل بقرب معلثايا بوفرة الزيتون فيه والرمان والآس والكرم والزعفران والنرجس.[3] واختص دير الزندورد وناحيته بالجانب الشرقي من بغداد بالفواكه والاترج والعناب. وكان عنبها من اجود ما يُعتصر هناك.[4] ونظيره في كثرة الفواكه والاعناب دير قُنّى بالقرب من بغداد. ودير قوطا بالبَرَدان على شاطئ دجلة. وعمر احويشا باسعرد من ديار بكر. وكان لدير كفتون ببلاد طرابلس حوض كبير مملوء من شجر النارنج يُحمل الى طرابلس ويباع فيها ويرتفق بثمنه الرهبان.[5]

---

١) الديارات للشابشتي ص ١١٦، ومسالك الابصار للعمري ص ٣٠٥
٢) مسالك الابصار ص ٣٠٥
٣ و٤) مسالك الابصار ص ٢٥٤
٥) مسالك الابصار ص ٣٢٥

وامتاز رهبان عمر الزعفران بعنايتهم بتربية النحل واشتيار العسل. ومنه ومن الزعفران اكثر يسارهم[١]. وغلبت زراعة النرجس والبنفسج والزعفران على دير مار مرونا بظاهر حلب. واشتهر دير مرّان في جبل قاسيون بدمشق برياضه الحسان، واشرافه على مزارع الزعفران. وحكى الخالدي انه اجتاز بدير العذارى بجانب العلث بين سرّ من رأى وبغداد وشاهد في جُنَينات لرواهبه جماعة يلقطن زهر العصفر. قال ولا يماثل حمرة خدودهن.[٢] وكثرت في دير المصلبة بظاهر القدس اشجار الزيتون والكروم وشجر التين.[٣]

وكان في دير إتراعيل، على اقل من ميل من كفر عزّى من قرى اربل، صنوف الزهر في الربيع وانواع الاقاحي والشقائق. وفي قلاليّ رهبانه جُنينات حسان فيها آس مصر وشجر مريم وغير ذلك.[٤] ونظيره دير ابا يوسف فوق الموصل « وموضعه حسن معمور بالزيتون والسرو والآس والرياحين مغروس الربى بالنرجس. »[٥]

وجملة القول ان الاديار كانت تشتمل خصوصاً في ما خلا الفواكه والبقول على الكروم لعصر الخمر، وعلى الرياحين والازهار للتحايا في الحانات ومجالس الشراب، وعلى الزعفران للتجارة. وسنفرد الكلام على كل منها بالتفصيل لما في التنبيه عليها من الفائدة والجدّة والطرافة.

١) مسالك الابصار ص ٣٠٥

٢) مسالك الابصار ص ٢٥٨–٢٥٩

٣) مسالك الابصار ص ٣٢٩

٤) مسالك الابصار ص ٢٨٨

٥) مسالك الابصار ص ٣٠٢

الخمر النصرانية

لم ينفرد النصارى بعصر الخمر وبيعها في الاسلام ، بل سبقهم الى الاتجار بها اليهود في الجاهلية. ولذلك قال عديّ بن زيد في وصفها :

صافنا التاجر اليهوديّ حولَسين واذكى من ريحها التعتيقُ(١

ووصف عبيد بن الابرص احدَ معتقيها من اليهود بصهبة الشارب فقال في غزله :

كأن ريقتها بعد الكرى اغتبقت صهباء صافية بالمسك مختومه
مما يغالي بها البيّاع ، عتّقها ذو شارب اصهب يُغلي بها السيمه(٢

وللحسين بن الضحاك من ابيات يذكر خمّارًا يهوديًا :

دسَّتْ حمراء كالشهاب له من كفّ خمّار حانة أفِك
يحلف عن طبخها بخالقه ، وربّ موسى ، ومنشئ الفلك(٣

ومن بعض اوصاف الخمور التي كانوا يبيعونها في حاناتهم ما عُرف بالجودة والقِدَم. ولذلك كان يقال لها معتَّقة اليهود. قال جحظة البرمكي لجليسين له كانا يستطيبان عشرته وغناءه « اجلسا عندي حتى... اطعمكما طباهجة بكبود. واسقيكما معتقة اليهود.»(٤ ومن المواضع التي اشتهر اليهود بتعتيق الخمر فيها سورا من ارض بابل بالعراق ولابي جفنة القرشي فيها :

ما زلت اشربها واسقي صاحبي حتى رأيت لسانه مكسورا
مما تخيّرت التجار ببابلٍ او ما تعتّقه اليهود بسورا(٥

وفي ديوان ابي نواس ابيات اشار فيها الى خمّاري اليهود. واجتاز مرة بحمص فشرب عند واحد منهم يقال له لاوي واستطاب شرابه وفضّله على شراب قطربل.(٦

---

١) التذكرة الحمدونية. باريس ٣٣٢٦ ، ص ١٠٢
٢) ديوانه ، طبعة ليال ، ص ٦١
٣) رسالة الغفران لابي العلاء ، ص ١١٨
٤) نشوار المحاضرة للتنوخي ١ : ٢٠٥
٥) معجم البلدان ٣ : ١٨٤—١٨٥
٦) ديوان ابي نواس. خزانة الفاتيكان ٤٥٦ ، ٢ : ١٩٦—١٩٧

وكان المجوس من الفرس يشاركون اليهود ايضاً في الاتجار بالخمور وعقد الحانات. وفي احدى بناتهم يقول ابن المعتز:

وخمّارة من بنات المجو ... س ترى الزقّ في بيتها شائلا
وزنّا لها ذهباً جامداً ... فكالت لنا ذهباً سائلا (١

ونظيره قول عبدالله النُميري العراقي:

وخمّارة من بنات المجو ... س لا تطعم النوم الا غرارا
طرقت على عجل، والنجو ... م في الجوّ معترضات حيارى (٢

ولكن الخمور النصرانية ولا سيما معتقات الاديار كانت هي «المشهورة في الآفاق. المعروفة في مغارسها بكرم الاعراق». (٣ لما امتازت به معاصرها من النظافة وحسن الصنعة والتأنق في الآلة. واختُصّ به باعتها وسقاتها من اللباقة والملاحة في الحانات والملابس. وطهارة الدنان والمبازل والكؤوس. ولذلك لما اراد الواثق بالله الخليفة العباسي ان يعقد حانتين له ولبطانته احداهما في دار الحُرَم، والاخرى على شط دجلة، «امر ان يُختار له خمار نظيف جميل المنظر حاذق بامر الشراب. ولا يكون الا نصرانياً من اهل قطربُل. فأُتي بنصراني لـه ابنان مليحان وابنتان بهذه الصفة. فجعلهم الواثق في الحانتين. وضمّ اليهم خدماً وغلماناً وجواري رومية. واخدم النساء حانة الحرم. والرجال حانة الشط». (٤ وكذلك فعل الوزير المهلبي لما زاره الصاحب بن عباد ووصف اجتماعه به في كتاب كتبه لابن العميد وقال في جملة مُلَحه واخباره «وعلى ذكر عُكبرا حضرنا مع الاستاذ ابي محمد (المهلبي) ايده الله تعالى بها. فاستدعى دنّاً للوقت. وخماراً للدير. وريحاناً من الحانة. واقترح غناءً من الماخور واخذنا في فنّ من الانخلاع عجيب». (٥

ولهذه الاسباب اتّهم الخليفة عمر بن عبد العزيز النصارى خاصة بإضلال المسلمين واغرائهم بالشرب في كتاب انفذه الى عـامله على مصر ايوب بن

---

١) تباشير الشراب لابن المعتز. باريس ٣٢٩٩، ص ٣٦
٢) فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج ٣: ٢٥٠
٣) مسالك الابصار. خزانة باريس ٢٣٢٥، ص ٢٠٨
٤) مسالك الابصار. طبعة مصر، ١: ٣٦٣
٥) يتيمة الدهر للثعالبي، طبعة دمشق، ٣: ١٣

شرحبيل واهل مصر في النهي عن الخمر فخُرِبت وكُسرت آلاتها وعطّلت حاناتها.[١] وكان الناس منذ عهد الخلفاء الراشدين يشربون الطِلاء. وهو العصير المطبوخ الذي ذهب ثلثاه وبقي ثلثه. قيل سمي بذلك لانه شبيه بطلاء الابل في ثخنه وسواده. وحجتهم في ذلك ما رُوي من ان عمر بن الخطاب كتب الى بعض عمّاله ان أرزق المسلمين من الطلاء. ما ذهب ثلثاه وبقي ثلثه. وحكي ان ابا موسى الاشعري وابا الدردا. كانا يشربان من الطلاء. ما ذهب ثلثاه وبقي ثلثه.[٢] وكذلك كان يفعل زيد بن سهل الانصاري، ومعاذ بن جبل الانصاري، وابو عبيدة ابن الجراح.[٣] قال ابو العلاء: «والمطبوخ وان اسكر فهو جارٍ مجرى الخمر. على ان كثيرًا من الفقها. قد شربوا الجمهوري والبختج والمنصَّف.»[٤] وهذه الانواع من عصير العنب المطبوخ. وقيل للاول منها الجمهوري لان جمهور الناس اي اكثرهم يستعملونه.

ومع ان عمر بن عبد العزيز كان ممن رخّص قبلًا في مثل هذا الطلاء،[٥] كتب الى ايوب بن شرحبيل يقول:

«يقولون ان الطلاء لا بأس علينا في شربه. ولعمري ان ما قرب الى الخمر في مطعم او شرب او غير ذلك ليُتّقى. وما يشرب اولئك شرابهم الذي يستحلّون الّا من تحت ايدي النصارى الذين يرون عليهم زيغ المسلمين في دينهم. ودخولهم في ما لا يحل لهم مع الذي يجمع نفاق يسلّهم ويسارة المؤونة عليهم.»[٦]

ومن الثابت المحقّق اليوم ان عمر بن عبد العزيز هو اول خليفة في الاسلام نظر شزرًا الى المسيحيين وابتدع، قبل المتوكل على الله، اول خطة لاذلالهم وحرمانهم وعسفهم.[٧] خلافًا للرأي الشائع منذ القرن الخامس للهجرة بنسبة مجموع

١) تاريخ مصر وولاتها للكندي، ص ٦٨
٢) نهاية الارب للنويري ٤: ٨٣
٣) تهذيب ابن عساكر ٦: ٤
٤) رسالة الغفران، ص ١٧٦
٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص ١٠٣
٦) نهاية الارب للنويري ٤: ٨٣
٧) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص ١٠٢

هذه المظالم المعروفة بالشروط العمرية لعمر بن الخطاب. فلا بدع من ثم اذا اراد تأثيم النصارى لإيثار المسلمين شرب خمورهم واستطابتهم لها. وقد شهد حين كان عامل المدينة تهتك بعض اولاد الخلفاء الراشدين والانصار والاشراف بالسكر في المنازل والاندية وحانات اليهود والمسلمين. حتى اشتهر حب الانصار للسطار وهي الخمرة الصارعة لشاربها. ولذلك وصفهم الاخطل بقوله:

قوم اذا هدر العصير رأيتهم حُمرًا عيونهم من السطار[1]

وكان عمر لا يجهل ايضاً ان اول مولع بها، مدافع عن حِلّها، ومثيب على حسن اختيارها، هم اهل بيته واكثر بطانته. وانهم كانوا لا يرون اقل حرج في تناولها وانتجاع حوانيتها. ولا يتكتمون في المنادمة عليها ولسان حالهم ينشد لجليسهم قول الحسن بن هانئ:

خذها على دين المسيح، اذا نهى عن شربها دين النبي محمد

وقد قصد الوليد بن يزيد بن عبد الملك الحيرة من اجلها في طلب خمار في دير حنة وُصف له بجودة الشراب ونظافة الآنية وملاحة الحانة. واستسقاه اربعة ارطال ووهبه عليها اربعمائة دينار.[2] وقد اشار الجاحظ الى ولع الخلفاء الامويين والعباسيين بالشرب. وعيّن الايام التي كان كل واحد منهم يخصصها للهوه وسكره. وعدّ منهم يزيد بن معاوية. وعبد الملك بن مروان. والوليد وسليمان وهشام ابناء عبد الملك. ويزيد بن الوليد. والوليد بن يزيد. ومروان بن محمد من الامويين. وابا العباس السفاح. والمهدي. والهادي. والرشيد. والمأمون. والمعتصم. والواثق من العباسيين في ايامه. ولما ذكر عبد الملك بن مروان قال انه كان يسكر في كل شهر مرة حتى لا يعقل أفي السماء هو او في الارض[3]. وقال ان المأمون كان في اول ايامه يشرب الثلاثاء والجمعة. ثم ادمن الشرب عند خروجه الى الشام في

---

١) الاغاني، طبعة بولاق، ١٣: ١٤٨

٢) مسالك الابصار ١: ٣٢١

٣) في متن الجاحظ المطبوع «أفي السماء هو او في الماء» والاصح ما اثبتناه. وقد اشار الى هذا المعنى ابن عُنين بقوله في صفة الخمر:

كُمَيْتٌ اذا ما نلت منها ثلاثة رأيت السما كالارض والارض كالسما

سنة خمس عشرة ومائتين (٨٣٠ م) الى ان توفي.[١]

فهل كان كل هؤلاء الخلفاء يشربون تحت ايدي النصارى . ام هل كان النصارى مسؤولين عن شهوات ملوكهم

عنب وخمر في الاناء وشارب   فمن الملوم أعاصر ام حاسر[٢]

وناهيك ان النصارى لم يكونوا منفردين ببيع الاشربة والمسكرات في الاسلام. بل كان ، فيما خلا اليهود والمجوس ، قوم من المسلمين ايضاً لا يتورعون من بيعها في الحانات . اشتهر منهم ابن بجرة بالطائف وهو الذي قال فيه ابو ذؤيب الهذلي:

ولو ان ما عند ابن بجرة عندها   من الخمر لم تبال لماتي بناطل[٣]

ومن النكت التي يجدر ايرادها هنا ما رواه الشابشتي قال: « ذكر ابو الشبل البرجمي قال: صرت انا ومحمود الى قطربل فدعونا خماراً فقلنا: ائتنا ببنت عشر قد انضجها الهجير. فجاءنا بها. فقلنا اسقنا. فسقانا. فقلنا اشرب واسقنا. فقال انا مسلم. وكان يهودياً قد اسلم. فقال لي محمود: قوم يكون الخمار عندهم مسلماً متحرجاً. وهم عند الخمار كفار. ترى لله فيهم حاجة. »[٤] ومن البديهي ان اليهودي بعد اسلامه لم يبقَ خماراً ولم يستجز بيع الشراب الا لمعرفته ان في الحانات نظراء له من المسلمين لا بأس عليه في الاحتذاء بهم. ولذلك لم يبعد الامام ابو حنيفة في النظر والاجتهاد حين اجاز بعد ذلك شرب المثلّث والمربّع في عصر كان الخلفاء العباسيون انفسهم ، وهم الائمة الذين بهم يُهتدى وبسيرتهم يُقتدى ، يجهرون بشرب الخمور والانبذة في مجالس حافلة بوجوه الدولة واشرافها وعلمائها. ويعقدون من اجلها الحانات حتى في دار حُرَم الخلافة كما تقدم من اخبار الواثق بالله. خلافاً لدعوى ابن خلدون في تبرئتهم من معاقرة الخمر والاقتصار بهم على شرب نبيذ التمر.[٥] وقد صرّح المؤرخون والادباء غير مرة بان الشراب الذي كان

١) كتاب التاج ، ص ١٥١-١٥٢

٢) لزوميات ابي العلاء ، ص ٢٠٢

٣) الاغاني ، طبعة بولاق ، ٦ : ٦٠

٤) الديارات للشابشتي ، ص ٣٠-٣١

٥) المقدمة ، طبعة بولاق ، ص ١٥-١٦

يتناوله الخلفاء في بعض مجالسهم ولا سيما في اسفارهم وزياراتهم الاديار النصرانية كان عصير الكرم. وسماه ابن المعتز في شعر له سيمرّ بنا قريباً « شراب القربان» وهو لا يحتمل اقل تأويل . ولا يخفى على احد محل ابن المعتز في بيت الخلافة فهو ادرى من ابن خلدون بما كان يشربه اهل بيته . وروى المسعودي عن ابي الحسن العروضي ، مؤدب اولاد الخليفة الراضي بالله ، انه دخل على الراضي يوماً فوجده خالياً بنفسه مغموماً . فجعل يسليه . ثم قال له: يمتع الله امير المؤمنين ان يكون كالمأمون في هذا الوقت حيث يقول:

صِلِ الندمان يوم المهرجان بصافٍ من مُعتَّقة الدنان
بكأس خسروانيّ عتيق فان العيد عيد خسرواني
وجنّبني الزبيبين طرّاً فشأن ذوي الزبيب خلاف شاني
فاشربها وازعمها حراماً وارجو عفو ربّ ذي امتنان
ويشربها ويزعمها حلالاً وتلك على الشقيّ خطيئتان (١

وحسبنا ان نشير هنا الى ما اخبر به ابن حمدون من زيارة المتوكل على الله لدير صليبا بدمشق ومنادمته لشعانين ابنة قس الدير . قال: ثم جاء ابوها بشراب من بيت القربان ذكر المتوكل انه لم يرَ مثله قط فشرب وشربت معه(٢ . ومعلوم ان خمر القربان لا تكون حتماً الا من العنب .

ولبعض الشعراء ابيات في حِلّ الاخذ من كل ملاذّ الحياة وشهواتها . والاحتجاج لها بمذهب من مذاهب الائمة الاربعة قال فيها:

الشافعي من الائمة قائل اللعب بالشطرنج غير حرام
وابو حنيفة قال ، وهو مصدَّق في كل ما يروي من الاحكام ،
شرب المثلّث والمربّع جائز فاشرب على امنٍ من الآثام .

وقد اشتهر ابو حنيفة بمذهبه هذا حتى بلغت شهرته في هذا الباب اقاصي المغرب والاندلس ، وصحَّ معها لابن عبد ربّه الاندلسي ان يقول مشيراً اليه :

ديننا في السماع دين مدينيٌّ وفي شربنا الشرابَ عراقي(٣

وقبله قال الحسن بن هانئ يعني ابا حنيفة والشافعي:

---

١) مروج الذهب ، بهامش نفح الطيب ، ٣ : ٤١٨

٢) الخزانة الشرقية ٣ : ١٥ ، والمشرق ٣٥ [١٩٣٧] ٢٧

٣) يتيمة الدهر للثعالبي ٢ : ٨

اباح العراقيُّ النبيذَ وشربه ... وقال حرامان المدامة والسكر
وقال الحجازيُّ الشرابان واحد ... فحلّت لنا ما بين قولها الخمر

ولو شئنا ان نروي كل ما قيل في الاسلام في إطراء الخمور النصرانية ومعتّقات الديارات لطال بنا سياق الابيات · ومن اغربها ما قالهُ فيها احد غُلاة الشعراء، وهو تاج الدين محمد بن حواري من قصيدة مدح بها الملك الناصر سنة ٦٤٦ (١٢٤٨/٩ م).

هذي المدام التي كانت معتّقةً ... من قبل ما سمّت الارض السماوات
صلّوا لها . فاند صلّت لها أمم ... اضحوا عكوفًا عليها مثل ما باتوا(١

واحسن منه قول الشهاب التلعفري وفيه نظر الى خمر القربان:

عُج حيث تسمع اصوات النواقيس ... من جانب الدير تحت الليل بالعيس
مستخبرًا عن كميت اللون صافية ... قد عتّقتها اناس في النواويس
مرَّ الزمان عليها فهو يخبر عن ... ما كان من آدم قدمًا وابليس
ترى الرهابين صرعى من مهابتها ... اذا بدت بين شماس وقسيس
تُتلى الاناجيل تعظيمًا اذا حضرت ... لها باشرف تسبيح وتقديس
لها احاديث ترويها اذا مُزجت ... في كأسها عن سليمان وبلقيس
لو ذاق منها غزال السرب مضمضةً ... لخاف مُرَّ سطاه ضيغم الخيس
يسعى بها من نصارى الدير بدر دجى ... يميس في فتية مثل الطواويس
فاصرف بها صرف خطب الدهر مغتنمًا ... ونادم الشمس مع تلك الشماميس(٢

وقد وصف الشعراء في خمريّاتهم رهبان النصارى وقسيسيهم باعتصار بنت الكروم والهينمة حول دَنّها بالصلوات وتلاوة المزامير. وهو قول عبد الصمد بن بابك في «عيسويّة» الخمر وتعليل الكؤوس «المزنّرة»:

هَينمَ القس حولها وتغنّى ... بمزامير دَنّها المزمار
ثم لما انتمت الى دين عيسى ... شُدَّ في حقو كأسها زنار(٣

وفي ضد ذلك احتج الاديب علي بن محمد المعروف بالاعمى الدمشقي الاصل. المصري المولد. الخراساني الدار. بعبث القسيس بدنّ الخمر في ما زعمه من

---

١) عيون التواريخ للكتبي ٢٠ :٢٢٧–٢٢٨ ، الخزانة التيمورية .
٢) ديوان التلعفري . الفاتيكان رقم ٣٦٠ ، ولهذه الابيات رواية اخرى محرفة وردت في المشرق (١٩٠٣/٥ ص ٤٥٦) منسوبة غلطًا لبعض النصارى .
٣) ديوان عبدالله بن المعتز ، رواية الصولي ، باريس ٣٠٨٧ ، ص ١١٧

تفضيل الحشيشة عليها وقال:

وفيها معان ليس في الخمر مثلها فلا تستمع فيها مقال مفنّد
هي البكر لم تُنكح بماء سحابة ولا عُصرت يوماً برجل ولا يد
ولا عبث القسيس يوماً بدنّها ولا قرّبوا من حانها كل ملحد(١

ومن طرائف الصفات النصرانية التي تفننوا باطلاقها على خمر الديارات « شراب القربان ». قال عبدالله بن المعتز:

اسكنوها في الدنّ من عهد نوحٍ كظلام فيه غبار حبيسُ...
من شراب القربان يوصي بها الشما سُ خزّانَ بيتها والقسوسُ(٢

ومنها « بنت المذابح والقسوس ». قال عبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن:

تسقيك كأس مدامة من كفها ممزوجة بمدامة من ثغرها
بنت المذابح والقسوس كريمة لا يُستحى يوم الحساب بوزرها(٣

ومنها « ام الرهابين وبنت الديور » في قول حسام الدين الحاجري:

واستجلها عذراء مشمولة ام الرهابين وبنت الديور(٤

ومنها « ديرية. وراهبية ». قال الببغاء. من ابيات في دير الزعفران:

ولما دجا الليل استمدّ سنا الضحى براحٍ نأت بالليل عن ظلماته
نصيبيّة ديريّة كاد كرمها يجوهرها ينهلُّ قبل نباته(٥

وقال الثرواني من ابيات في قلاية القس:

أن قهوة حبرية راهبية عتيقة خمس او تزيد على خمس(٦

ومنها «بنت قسيس». قال علي بن اسماعيل من شعراء الخريدة من قصيدة:

قم قبل تأذين النواقيس واجل علينا بنت قسيس(٧

ومنها « ابنة المطران » في قول صدر الدين بن الوكيل:

ودارت علينا الخمر حتى تملكت عقول رجال مثلها ليس يُملك

---

١) راحة الارواح في الحشيش والراح لتقي الدين البدري ، باريس ٣٥٤٤ ، ص ١١٧
٢) ديوان عبدالله بن المعتز المذكور اعلاه ، ص ١٠٩
٣) تباشير الشراب لابن المعتز . باريس ٣٢٩٩ ، ص ١٣
٤) حديقة الافراح للثرواني ص ١٤٩
٥) عيون التواريخ للكتبي . الخزانة التيمورية ، ص ٢٠٣
٦) مسالك الابصار ، ص ٢١٦
٧) خريدة القصر للعماد الكاتب . باريس ٣٣٢٨ ، ص ١٢٥

فلا رأيت القوم بالكأس صُرّعوا وان ابنة المطران بالقوم تفتك
أرَقتُ دم الراووق حِلّا لانني رأيت صليباً فوقه فهو مشرك(١

وسمّاها سبط ابن التعاويذي مرة «بنت الشمامس والاساقف» في قصيدة مدح بها الخليفة المستضيء بامر الله وقال منها:

قم يا نديمي ملبيّاً داعي الصبوح ولا تخالف
فاستجلها كرخيّة بنت الشمامس والاساقف

وقال فيها مرة اخرى:

حمراء تجلو ظُلَم الاغباس «ربيبة القسيس والشماس» (٢

ودعاها شرف الدين بن المستوفي الاربلي المتوفى سنة ٦٣٧ للهجرة «ذخيرة شماس وقسيس» بقوله:

قم فاسقنيها على صوت النواقيس خمراً ذخيرة شماس وقسيس(٣

وهلمّ جرّاً من امثال هذه النعوت النصرانية.

ومن الديارات التي اشتهرت خصوصاً بجودة خمرها. وكانت مقصداً للتجار ومحطاً للقوافل تنقل منها زقاق الشراب الى كل الانحاء والاقطار. دير ابا يوسف قريباً من بَلَد — مدينة قديمة فوق الموصل — كانت القوافل كل يوم «تحط عنده تأخذ خمراً. والمُجّان تقصده للتنزه فيه بطنابيرهم وعيدانهم وسائر ملاهيهم».(٤ ومنها عمر الزعفران «شرابه معروف يُحمل الى نصيبين وغيرها».(٥ ومنها عمر احويشا وهو «في نهاية العمارة وحسن المواقع وكثرة الفواكه والخمور. ويحمل منه الى اسعرت وارزن».(٦ ومنها دير العذارى بجانب العلث بين سامرّا وبغداد. ودير سابُر في الجانب الغربي من دجلة. ودير جرجس بالمزرفة على شاطئ دجلة ودير سرجيس بطيرناباذ بين الكوفة والقادسية. ودير زرارة بين الكوفة وحمام

١) النهج السديد للمفضل بن ابي الفضائل. باريس ٤٥٢٥، ص ١٨٢
٢) ديوانه، ص ٢٨٢ و٤٨٥
٣) جزء من تاريخ في المكتبة الاحمدية بحلب منسوب للصلاح الصفدي
٤) مسالك الابصار، ص ٣٠٣
٥) الديارات للشابشتي، ص ٨٣
٦) الديارات للشابشتي، ص ٨٦

اعين . ودير اشموني بقطربُل . ودير قوطا بالبردان على شاطئ دجلة.[١] ودير الطور ما بين طبرية واللجون. «وحوله كروم يعتصرونها فالشراب عندهم كثير».[٢]

ويُنسب الى دير اكمُن او اكمل على راس جبل بالقرب من الجودي الخمر الموصوف. فهو النهاية في الجودة. وقيل انه لا يورث الخمار.[٣] وهو من اغرب المزاعم التي اطرأت شهرة الخمور النصرانية.

وبالاجمال ندر ان يكون دير من الاديار غير مختص بنوع من الاشربة يُتّجر بها. ومنها في الغالب كان اكثر انتفاع الرهبان، في ما خلا الاثمار والرياحين والازهار .

---

١) مسالك الابصار، ص ٢٥٨؛ وديارات الشابشتي، ص ٢١، و٢٧، و١٠٣، و١٠٧ و١٨-١٦

٢) معجم البلدان ٢: ٦٧٥

٣) معجم البلدان، طبعة مصر ١٩٠٦، ٤: ١٢٤

التحايا

التحايا جمع تحية بمعنى التحفة والطرفة . وهي على هذا الوجه غير واردة في معاجم اللغة . وفي الشابشتي في كلامه على دير درمالس (رومانس) « حضر من احداث الموضع من كان يقضي لنا الحاجة ويجيئنا بالطرفة والتحية . »[١] واكثر ما تطلق على الطاقة من الازهار والرياحين التي يُحيّا بها الندماء . وتُزيَّن بها مجالس الشراب . ومنها بيت الثرواني :

وان اتنا حيّتاني تحية فلا تعدُوَا ريحان قلّاية القس[٢]

ونظيره قول ابي الفرج الببغا في النرجس :

ونرجس لم يعدُ مبيضّه الكأ س ، ولا اصفره الراحا
كأنما تُهدي التحايا به لطفًا الى الارواح ارواحا[٣]

وفي هذا المعنى لابي اسحق الصابي يصف مجلس أنس شبَّهه بالمعركة :

كأن رجوم تحاياهُمُ سهامٌ على الجيش منها نثار[٤]

وفي الاغاني لابي الفرج الاصبهاني: « قالت ريّق كنت يوماً بين يدي الرشيد وعنده اخوه منصور وهما يشربان . فدخلت اليه خاوب جارية لعليّة (اخت الرشيد) ومعها كأسان مملوءتان وتحيّتان . ومع خادم يتبعها عود فغنتهما قائمة . والكأسان في ايديهما . والتحيّتان بين ايديهما . »[٥]

ولمحمد بن بشير يهجو يوسف بن جعفر بن سليمان :

ريحانه بدم الشباب ملطّخ وتحيّة الندمان لطم المبن[٦]

ولما خرج المأمون ونزل الدير الاعلى بالموصل وجاء عيد الشمانين « زيّن الدير في ذلك اليوم باحسن زيّ . وخرج رهبانه وقسّانه الى المذبح وحولهم فتيانهم

١) الديارات للشابشتي ، ص ٢
٢) معجم البلدان ٤ : ١٥٦
٣) اليتيمة للثعالبي ، طبعة مصر ، ١ : ٢٢٨
٤) اليتيمة للثعالبي ، طبعة مصر ، ٢ : ٢٢٧
٥) الاغاني ٩ : ٨٧-٨٨
٦) الاغاني ١٢ : ١٣٤

بايديهم المجامر قد تقلدوا الصلبان وتوشحوا بالمناديل المنقوشة. فرأى المأمون ذلك فاستحسنه. ثم انصرف القوم الى قلاليهم وقربانهم. وعطف الى المأمون من كان معهم من الجواري والغلمان بيد كل منهم تحية من رياحين وقتهم. وبايدي جماعة منهم كؤوس فيها انواع الشراب. فادناهم وجعل يأخذ من هذا ومن هذه تحية وقد شغف بما رآه منهم.»[1]

ومن شواهد اطلاق التحايا على هدايا الفواكه والتفاح قول ابي خالد الكاتب وقد اجتاز بدير محلّى ومعه ابو زرعة الدمشقي الشاعر: «ثم اتانا الرهبان بتحايا الورود والياسمين والتفاح واخرجوا الينا شراباً عتيقاً في نهاية الصفاء والرقة.»[2] ومثله ما رواه ابن عبد ربّه عن الفضل بن يحيى ان طفيلياً من اهل المدينة دخل عليه وبيد الفضل بن يحيى تفاحة «فالقاها اليه وقال: حيّاك الله يا مدنيّ. فكزمها واكلها. فقال له: شؤم عليك يا مدني. أتأكل التحيات.»[3]

وكان في الحيرة غلمان يرتزقون من حمل الفاكهة وبيع التحيات. منهم حُنين ابن بلوع المغني المشهور «قيل كان لطيفاً في عمل التحيات. فكان اذا حمل الرياحين الى بيوت الفتيان ومياسير اهل الكوفة واصحاب القيان والمتطربين الى الحيرة ورأوا رشاقته وحسن قدّه وحلاوته وخفة روحه استحلوه واقام عندهم وخفّ لهم.»[4]

وقد يراد بالتحية مجرّد الهدية من الطرائف والنفائس: «حدّث سعيد بن يوسف قال: كنت اتقلد خزائن الكسوة. وكان اذا امر المعتز ليونس (بن بُغا) بشيء اخذت له اجلّ ما في الخزائن واحسنه... فقلت له يوماً: يا سيدي انا عبدك وموفر لمالك. وانت تشرّف مسروراً المتصي بالتحية الحسنة مما يكون بين يدي امير المؤمنين. وانا فلا تشرفني بمثل ذلك. فقال الليلة نوبتك.»[5]

١) الديارات للشابشتي، ص ٧٦
٢) مسالك الابصار، ص ٣٣١
٣) العقد الفريد. المطبعة الازهرية. مصر سنة ١٣٢١، ٣: ٣٧٩
٤) الاغاني، طبعة الدار، ٢: ٣٤٥
٥) الديارات للشابشتي، ص ٧٣

وكان يقال قديماً لمثل هـذه التحيات التي يُزيَّن بها مجالس الشراب العمارة والعمار. وفسروا بها في احد الوجهين قول الاعشى:

فلما اتانا بُعَيد الكرى سجدنا له ورفعنا العمارا(١

قال ابن منظور: «العمار هنا الريحان يُزيَّن به مجلس الشراب وتسميه الفرس ميوران. فاذا دخل عليهم داخل رفعوا شيئاً منه بايديهم وحيّوه به.»(٢ ومن هنا يُعلم ان عادة اتخاذ الورود والرياحين للشرب عليها والتحية بها كانت في الجاهلية وسبقت الاسلام. ومنها قول النابغة الذبياني في مدح آل جفنة النصارى:

رقاق النعال طيّبٌ حُجزاتهم يُحيَّون بالريحان يوم السباسب

اي يوم الشعانين. وللاعشى قيس في قصيدته «وَدِّع هريرة ان الركب مرتحل» ابيات ذكر فيها غدوّه الى الحانوت اي بيت الخمّار:

في فتية كسيوف الهند قد علموا ان ليس يدفع عن ذي الحيلة الحيل

واتبعها بقوله:

نازعتهم قُضُب الريحان متّكئاً وقهوة مزّة راووقها خَضِل(٣

وله ايضاً يصف مجلس الشراب:

وشاهدنا الورد والياسمين والمسمعات بقصّابها(٤

وفي حديث حسّان بن ثابت ان جبلة بن الايهم كان «اذا جلس للشراب فرش تحته الآس والورد والياسمين واصناف الرياحين.»(٥

ولابن سيحان من شعراء الاغاني:

أُسقي أعاطيه كأساً لذّ مشربها كالمسك حُفَّت بنسرين وريحان(٦

ولم يكن مثل هذا التجمّل بالرياحين والازهار وطرحها على بساط المدام نصيب الاغنياء والمترفين فقط. بل اصبح في الاسلام رسماً للفتوّة لا يخلّ به اشقى الفقراء والمعدمين. روى ابو الفرج الاصبهاني قال: «دعا الاخطلَ شاب من

١) نكت الهميان للصفدي، ص ٧
٢) لسان العرب ٦: ٢٨٣
٣) الاغاني ٨: ٩٩
٤) التذكرة الحمدونية. باريس رقم ٣٣٢٤، ص ١٠٥
٥) التذكرة الحمدونية. باريس رقم ٣٣٢٤، ص ١٠٧
٦) الاغاني، طبعة الدار، ٢: ٣٦٠

شباب اهل الكوفة الى منزله فقال له: يا ابن اخي انت لا تحتمل المؤونة وليس عندك معتمد. فلم يزل به حتى انتجعه فاتى الباب فقال يا شقراء. فخرجت اليه امرأة. فقال لامه: هذا ابو مالك قد اتاني. فباعت غزلاً لها واشترت له لحماً ونبيذاً وريحاناً. فدخل خُصّاً لها فأكل معه وشرب. وقال في ذلك شعراً.»[1]

وفي حديث علي بن امية قال: دخلت يوماً على عمر الميداني. وكان له بقال على باب داره ينادمه ولا يفارقه ويقارضه اذا اعسر... فقال لنا عمر: معي اربعة دراهم تعطوني منها لعليق حماري درهماً والثلاثة لكم فكلوا بها ما احببتم. وعندي نبيذ وانا اغنيكم. والبقال يحضرنا من الابقال اليابسة في حانوته. فوجّهنا بالبقال فاشترى لنا بدرهم فاكهة وريحاناً. وجاءنا من حانوته بجوائج السكباج ونقل.»[2]

وقد بلغت عادة التحيات في الاسلام الغاية من البذخ والترف فكان الخلفاء والوزراء ووجوه الدولة يتفننون في تزيين مجالس شرابهم باطايب الفواكه ونوادر الرياحين والورود. ويغالون في الانفاق والتبذير، كما حكاه ابو جعفر بن حمدون وهو شاهد عياني، قال:

«كنا نشرب مع الراضي بالله يوماً في مجلس مغشّى بالفاكهة الحسنة الفاخرة. فتعرض بالجلوس فقال: افرشوا لنا المجلس الفلاني واطرحوا فيه ريحاناً ونيلوفراً فقط. طرحاً فوق الحصر بلا اطباق ولا تعبية في مشامّ كما تفعل العامّة. وعجّلوا ذلك الساعة لننتقل اليه. قال فلم تكن الا لحظة حتى قالوا له قد فرغنا من ذلك. فقال لنا قوموا. فقمنا معه. فلما رأى المجلس قال للشرابيّة: غيّروا لون هذا الريحان بشيء من الكافور يُسحق ويُطرح فوق. فليس هو مليح هكذا. قال فاقبلوا يجيئون بصواني الذهب فيها الكافور الرباحي المسحوق ارطالاً ويطرح فوق الريحان وهو يستزيدهم الى ان صار الريحان كالمغطّى ببياض الكافور. وكأنه ثوب اخضر قد نُدف عليه قطن رقيق. او روضة سقط عليها ضرائب الثلج. وقال حينئذ: حسبكم. قال وقدرت ما استعمل من الكافور كان اكثر من الف مثقال بشيء كثير. فشربنا عليه. فلما قام امر بنهبه. فاخذ غلماني منه مثاقيل كثيرة لانهم

١) الاغاني، طبعة بولاق، ٧: ١٨٥

٢) الاغاني، طبعة بولاق، ٢٠: ٦٦

كانوا في جملة الخدم والفراشين والغلمان الذين نهبوا ذلك.»[١]

وروى القاضي ابو علي التنوخي قال:«شاهدنا نحن ابا محمد المهلبي في وزارته وقد اشترى في ثلاثة ايام متتابعة وردًا بالف دينار فطرحت في بركة عظيمة كانت له في دار كبيرة تعرف بدار البركة . وشرب عليه ونُهب . وكان في البركة فوّارة حسنة فطرح الورد فيها وفرشه في مجالسه . وكان لذلك شرح طويل . وشرب ابو القاسم بن ابي عبدالله البريدي بالبصرة على ورد بعشرين الف درهم في يوم واحد على رخصه هناك واسترخاص السلطان لما يشتهيه.»[٢]

ومن اغرب ما كان يُتخذ من الرياحين والازهار في مجالس الشراب والحانات قُضُب كانت تجعل خلف آذان السقاة والشاربين . او تُعقد منها اكاليل توضع فوق رؤوسهم. ولذلك قال ابو دلف العجلي مفتخرًا:

يومًا تراني على طمرٍ ترهبني الأجبلُ الرواسي
ويوم لهوٍ احثُّ كأسًا وخلف اذني قضيب آس[٣]

ومثله قول ابن المعتز في وصف ساق:

وطاف بها ساقٍ اديب بمترل كخنجر عيّار صناعته الفتك
وحمّل آذريونة فوق اذنه ككأس عقيق في قرارتها مسك[٤]

وله ايضاً في الساقي المكلّل بالآس المرصّع بصنوف الريحان:

عليه اكليل آسٍ فوق مفرقه قد رصّعوه بانواع الرياحين[٥]

وقد جمع ابو نواس بين « تحيّات الندامى » و« أكاليل الرياحين » فقال:

ألذّ واشهى من قراع الكتائب مصافحة الطاسات من كل جانب
واخذ تحيّات الندامى وردّها بترحيب انس من حبيب وصاحب
ولبس اكاليل الرياحين بينهم وإنصات آذان الى شدو ضارب[٦]

وله ايضاً في الاكليل او التاج:

---

١) نشوار المحاضرة للتنوخي ، ص ١٤٤–١٤٥

٢) نشوار المحاضرة للتنوخي ، ص ١٤٧

٣) مروج الذهب ، بهامش نفح الطيب ، ٣ : ٢٠٤

٤) ديوانه . باريس رقم ٣٠٨٧ ، ص ١١٢

٥) ديوانه . باريس رقم ٣٠٨٧ ، ص ١١٧

٦) ديوانه . باريس رقم ٤٨٣١ ، ص ١٠٥

كأنَّ اكليله تاج ابن مارية   اذ راح منعصباً بالورد والآس(١

ومثله قوله في وصف ساق.

يدور بها ظبيٌ غريرٌ متوّجٌ   بتاج من الريحان ملك القراطق(٢

وله في ريحانة الاذن:

احسن عندي من انكبابك بالفهـــر ملحًّا به على وتــد
وقوف ريحانة على أُذُن   وسير كأس الى فمٍ بيد(٣

ونظيره قوله في ورد الآذريون:

بيدَيْ ساقٍ عليه   حلة من ياسمين
وعلى الاذنين منه   وردتـا آذريون(٤

ولابي بكر الصنوبري من ابيات:

لا اشرب الكأس الا من يدي رشاٍ   مهفهف كقضيب البان ميّاس
مورّد الخد في قُمص موردة   له من الآس اكليل على الراس(٥

ومن اصدق تشبيهات التحيات في «اكاليل الرياحين» قول ابي عثمان الخالدي في وصف مجلس انس حضره:

والخمر تُجلى على خطّابها فترى   عرائس الكرم قد زُفّت لازواج
وكلنا من اكاليل البهار على   رؤوسنا، كانوشروان في التاج(٦

وفي لسان العرب ان مثل هذه الاكاليل التي اتخذها العرب عن العجم كانت تسمى العمار[٧].

وقد اشتهر الواثق بالله بحب المواخير وعقده حانتين احداهما في دار الحُرَم والاخرى على الشط. فلما فرغ منهما امر باحضار المغنّين والجلساء. والدنان «وكان يوضع على رأس الخضور اكاليل الآس وما اشبه من الرياحين.»[٨]

ومما تقدم تتبين حاجة الرهبان الى الإكثار من زراعة الورد والريحان والفواكه لبيعها في التحايا واصناف النقول في الحانات اللاحقة بالديارات.

١) ديوانه، طبعة مصر سنة ١٨٩٨، ص ٢٦٧
٢) ديوانه، طبعة مصر سنة ١٨٩٨، ص ٢٠٧
٣) خزانة الثانيكان رقم ٤٥٦، ص ١٠٥   ٤) ديوانه، طبعة مصر، ص ٣٢٩
٥) معجم البلدان ١: ٦٦٨   ٦) يتيمة الدهر، طبعة مصر، ٢: ١٨٦
٧) لسان العرب ٣: ٤٣٠   ٨) مسالك الابصار، ص ٣٤٩

الزعفران

هو النبات المعروف . وزهره احمر الى الصفرة ، ذكي الرائحة . وكان يُتخذ للصبغ والدواء والطيب . وله في الشعر والحديث ودواوين اللغة عدة أسماء ومرادفات ، بينها المأنوس والوحشيّ :

١ الجاديّ والجاديا . قال الزمخشري : « نُسب الى الجادِيَة ، وهي من اعمال البلقاء . سمعت من يقول ارض البلقاء تلد الزعفران . »[١] قال بشار

باكرنَ عطر لطيمةٍ وتمسن في الجاديّ غمسا[٢]

٢ الجَسَد والجِساد . يقال ثوب مُجسَد ومُجسَّد مصبوغ بالزعفران.[٣] ومنه لا تخرجن الى المساجد في المجاسد.[٤]

٣ الرادن . يقال احمر رادنيّ اذا خالطت حمرته صفرة كالورس.

٤ الرَدْع . او هو لطخ من الزعفران . وفي حديث عائشة : كُفِّن ابو بكر في ثلاث اثواب . احد ثيابه ردع من زعفران ، اي لطخ لم يعمّه كله . ويقال قميص رادع ومردوع ومردَّع : فيه اثر طيب او زعفران.[٥]

٥ الرَيْهُقان . والرقان والرقون . قال :

ونَسمة اذا ما شئت غنَّت مضمَّخة الترائب بالرقان[٦]

٦ الزَرْنَب . وفي حديث ام زرع : المسّ مسّ ارنب . والريح ريح زرنب . قال ابن الاثير في تفسيره هو الزعفران[٧]

٧ الحُصّ . ومنه في احد القولين بيت عمرو بن كلثوم في الخمرة :

مشعشعة كأن الحصّ فيها اذا ما الماء خالطها سخينا

---

١) اساس البلاغة ، طبعة الدار ، ١ : ١٦٢
٢) الاغاني ، طبعة الدار ، ٣ : ١٦٩
٣) التاج ٢ : ٣٢٠
٤) اساس البلاغة ١ : ١٣٤
٥) التاج ٥ : ٣٥٢–٣٥٣
٦) التاج ٩ : ٢١٨
٧) التاج ١ : ٢٨٧

ومثله قول الاعشى في التشبيه: كأنه «يُطلّى بجصٍّ او يغشّى بعظلم »[١]

٨ العبير. قيل هو اخلاط من الطيب تُجمع بالزعفران . وقيل هو الزعفران وحده. قال الاعشى:

وتبرد برد رداء العروس ، في الصيف ، رقرقت فيه العبيرا

ولابي ذؤيب:

وسرب تطلّى بالعبير ، كأنه دماء ظباء بالنحور ذبيح[٢]

ويظهر ان اول من صبغ ثوبه بالزعفران من العرب عامر بن جُشم بن حبيب فلُقّب به وقيل له: ذو المجاسد.[٢] واقتدى به سائر العرب. وعمَّ صبغ الثياب واللحى بالصفرة. روى اسمعيل بن عبدالله بن جعفر عن ابيه قال: رأيت النبي وعليه ثوبان مصبوغان بالزعفران رداء وعمامة[٤]. وعن زيد بن اسلم ان ابن عمر كان يصبغ لحيته بالصفرة حتى تمتلئ ثيابه من الصفرة . فقيل له لِمَ تصبغ بالصفرة فقال اني رأيت رسول الله (صلعم) يصبغ بها. ولم يكن شيء احب اليه منها. وقد كان يصبغ بها ثيابه كلها حتى عمامته[٥]. وفي كتاب نوادر الإشراق في مكارم الاخلاق عن ابي عبدالله قال: ما من شيء احسن على الكعبة من الرياط السابريّ المصبوغ بالزعفران.[٦]

وكان يُعَدّ مثل هذا الصبغ من التأنق والطيب ولذلك نهى في الحديث ان يتزعفر الرجل. وقال لا تلبسوا شيئاً من الثياب مسّه الزعفران ولا وَرْس[٧]. وفي روايات الشيعة عن عمران الحلبي عن ابي عبد الله انه سُئل عن المُحرم يكون به الجرح يتداوى بدواء فيه زعفران فقال: «ان كان الزعفران غالباً على الدواء فلا. وان كانت الادوية غالبة عليه فلا بأس». ورووا عن الصادق ، وهو لقب ابي

١) التاج ٣: ٢٣٠
٢) لسان العرب ٦: ٣٠٥
٣) التاج ٢: ٢٣٠
٤) العقد الفريد لابن عبد ربه ٣: ٢٨٥
٥) سنن ابي داود ٢: ١١٤
٦) من مخطوطات الخزانة الملوفية ، رقم ١٦٩٣ ، ص ١٤٣
٧) صحيح البخاري ، بولاق ، ٧: ٣٦ و ٤٥

جعفر محمد بن علي بن الحسين ، انه قال : يُكرَه من الطيب اربعة اشيآء للمحرم: المسك. والعنبر. والزعفران. والورس[1].

وانما رغبوا هذه الرغبة في الزعفران لذكاء رائحته . وحمرة لونه المائلة الى الصفرة. وكانت الصفرة احب شيء الى رجالهم ونسائهم. ولاعرابي في عجوز:

وما غرّني الّا خضاب بكفّها وكحل بعينيها واثوابها الصفر[2]

وقيل ان الخليفة معاوية كان يصفّر لحيته كأنها الذهب.[3] وكان الامراء والولاة والكبراء اذا خَلَوْا للشرب لبسوا المصبَّغات الملونة ولا سيما الصفر قال الشعبي: لما ولي بشر بن مروان الكوفة كنت على مظالمه فأتيته عشيةً . . . فاذا بشر بن مروان عليه غلالة رقيقة صفراء. وملاءة تقوم قياماً من شدة الصقال وعلى رأسه اكليل من ريحان.[4]

ومن الخلفاء الذين غالوا في التهوس بلون الصفرة وانفقوا عليه النفقات الطائلة المتوكل على الله. حدَّث ابو محمد بن حمدون عن ابيه قال:

« ان المتوكل اشتهى ان يجعل كل ما يقع عليه عينه في يوم من ايام شرابه اصفر. فنُصبت له قبة صندل مذهبة مجلّلة بديباج اصفر. مفروشة بديباج اصفر. وجُعل بين يديه الدستنبو والاترج الاصفر. وشراب اصفر في صواني ذهب . ولم يحضر من جواريه الا الصُفر عليهن ثياب قصب اصفر . وكانت القبة منصوبة على بركة مرصّعة يجري فيها الماء. فامر ان يُجعل في مجاري الماء اليها الزعفران على قدر ليصفرّ الماء. ويجري من البركة. فنُعل ذلك وطال شربه. فنفد ما كان عندهم من الزعفران. فاستعملوا العصفر. ولم يقدّروا انه ينفد قبل سكره فيشتروا. فنفد. فلما لم يبقَ الا قليل عرّفوه وخافوا ان يغضب ان انقطع ولا يمكنهم قصر الوقت من شراء ذلك من السوق . فلما اخبروه انكر لِمَ لم يشتروا امرًا عظيماً

---

1) كتاب من لا يحضره الفقيه لابي جعفر محمد بن بابويه القمّي ، رقم ١٧٠٣ من الخزانة الملوكية ، ص ٢٤٣

2) العقد الفريد ٣ : ٩٣

3) مجلد من تاريخ الاسلام للذهبي. خزانة اكسفرد Laud. or. 286, f°35a

4) الاغاني، طبعة الدار، ٢ : ٣٤٩

وقال: الآن ان انقطع هذا تنغّص يومي. فخذوا الثياب المعصفرة بالقصب فانقعوها في مجرى الماء ليُصبغ لونه بما فيها من الصبغ. ففُعل ذلك. ووافق سكره مع نفاد كل ما في الخزائن من هذه الثياب. فحُسب ما لزم على ذلك من الزعفران والعصفر ومن الثياب التي هلكت فكان خمسين الف دينار.»[1]

وهذا مثل من امثال شهوات الخلفاء الغريبة واقتراحاتهم في التبذير والاسراف وهي التي اتصف بها المتوكل خصوصاً في خلافته.

وكان الزعفران ايضاً من اهم مواد الطيب والزينة. تُمدح به النساء الحسان. ولذلك قال الشمّاخ بن ضرار:

جا شرّقن من زعفران وعنبر اطارت من الحسن الرداء المحبرا (٢

وما لبث النساء ان اتخذنه لطلاء وجوههن. وربما سُمّي هذا الطلاء الغمرة. وفي الامثال: من خُدع بالغُمرة وقع في الغَمرة. اي في الشدة والمكروه. حكي ان ابن عبدل تزوّج امرأة من همدان. فلما دخل بها كرهها، فقال من ابيات:

واني قد دُلِلت على عجوز مبرقعة مخضّبة البنان
تنفّض جلدها؛ واخضرّ، الّا اذا ما ضُرّجت بالزعفران (٣

وهذا معنى قولهم: اهلك النساء الاحمران: الذهب والزعفران[4].

وربما سمي الزعفران عطر العذارى. قال العباس بن الحسن، وزير المكتفي والمقتدر، وقد التطخت اصبعه الوسطى بالمداد:

انما الزعفران عطر العذارى ومداد الدويّ عطر الرجال (٥

وانما خُصّص بهنّ لكثرة استعمالهن له. والّا فانه كان عطر الرجال كما سبق من ذكر تحريمه على المُحرِم. قال المنصور بن عامر:

ألم ترَني بعتُ المقامة بالسرى، ولين الحشايا بالخيول الضوامر
وبُدّلتُ بعد الزعفران وطيبه، صدا الدرع من مُستحكمات المسامر (٦

---

١) نشوار المحاضرة ١: ١٤٦-١٤٧

٢) زهر الآداب للحصري، بهامش العقد الفريد، ١: ٢٤٠

٣) الاغاني، طبعة الدار، ٢: ٤١٩

٤) كتاب البخلاء للجاحظ. طبعة ليدن ص ١١٧

٥) الوافي بالوفيات للصفدي، خزانة بريتيش موزيوم Add. 2358 f° 9b

٦) اليتيمة للثعالبي، طبعة مصر، ٢: ٥٤

ولذلك كان يُستصحب في الاسفار ويُستصلح للهدايا حتى للاعراب وساكني الخيام. قيل خرج عبدالله بن جعفر يريد الشام فألجاه المطر الى ابيات فقراه رجل فيها ليلتين فاراد مكافأته. فدعا بثوب فجعل فيه زعفراناً وصرَّ في طرف منه مئة دينار ثم بعث به الى اهل الرجل. فابوا قبوله.[١] وكان لكثرة ما تهدي منه الوزراء واصحاب الثراء يُطحن كما يطحن الدقيق. حكى ابو عبد الله احمد ابن الاصبغ قال: «كنت اتصرف مع سليمان بن وهب (الوزير العباسي) لقرابة كانت بيننا من جهة النساء. وكانت حالي بصحبتهِ في نهاية السعة حتى انه كان يطحن الزعفران في داري كما يطحن الناس الدقيق لكثرة ما يجيئنا من الجبل ونستعمله ونهديه.»[٢] ويعني بالجبل هنا كورة اصبهان. واكثر ما كان يُستعمل الزعفران في تركيب الخلوق. وهو نوع من الطيب مائع اعظم اجزائه الزعفران. يقال: خلّقه وتخلّق الرجل اذا تطيب بالخلوق. ولابن المعتز في التشبيه

او عروس قد صُبّغت بخلوق   فهي صفراء في قميص حُباب[٣]

وربما طيبوا بالخلوق بعض الاحجار تكريماً. قيل «وفي سنة ٦٦٠ (١٢٦٠م) ظهر في مصر تجاه حوض الجامع الاقمر حجر مكتوب عليه هذا مسجد موسى عليه السلام. فخلّق بالزعفران وسمي من ذلك اليوم بالركن المخلّق.»[٤] ومن هذا القبيل تخليق عمود مقياس النيل اذا بلغ الوفاء ست عشرة ذراعاً ويحصل لاهل مصر به فرح عظيم «ويُتخذ ذلك اليوم عيداً يركب فيه السلطان بعساكره وينزل في المراكب لتخليق المقياس. ويجتمع الناس من كل الانحاء للفرجة. ويجري من الطرب والتهتك ما لا مزيد عليه. ولذلك قال شهاب الدين بن العطار مورّياً الى الستر الذي كان يُسبَل على شباك المقياس للتبشير بوفاء النيل:

هنّئك الخلق بالتخليق، قلت لهم: ما احسن الستر! قالوا: العفو مأمول!
ستر الإله علينا لا يزال فما   احلى تهتكنا والستر مسبول[٥]

---

١) لباب الآداب لأسامة بن منقذ، مصر، ص ٨٥–٨٦

٢) نشوار المحاضرة ٨: ٦٦

٣) زهر الآداب للحصري، بهامش العقد الفريد، ١: ٢٠٧

٤) الخطط للمقريزي، مطبعة النيل، ٢: ٣٤٨

٥) الخطط للمقريزي، مطبعة النيل، ٣: ٩٧ و٢٠٠

وفي سنة ٨٠٥ وفّى النيل ست عشرة ذراعاً فنزل المقام الفخري عثمان ابن السلطان في وجوه الناس وخلّق المقياس. وكان هذا اليوم من الايام المشهورة لغاية سرور الناس بوفاء النيل وخلّق الناس بعضهم بعضاً بالزعفران(١).

ولما عاد الملك الظاهر برقوق الى مصر سنة ٧٩٣، في سلطنته الثانية، طلع الى القلعة ودخل الى الدور السلطانية. قال ابن تغري بردي: فاستقبلته المغاني والتهاني وفرشت الشقق الحرير تحت اقدامه ونثر على رأسه الذهب والفضة. هذا وقد تخلّق غالب اهل القلعة بالزعفران(٢).

وفي سنة ٨٨٦ عزل السلطان قايتباي كاتب السر ابن مزهر. ثم رضي عليه، واعاده الى منصبه، وخلع عليه. «فنزل من القلعة في موكب حافل وتخلّق جماعة بالزعفران وزيّنت له حارته.»(٣)

وفي سنة ٩٠٢ لما ثبت رشد السلطان الناصر ابي السعادات ابن الملك الاشرف قايتباي ضربت البشائر بالقلعة وتخلّق جماعة بالزعفران.(٤)

ومما تقدم يتبين ان العادة كانت لا تزال باقية حتى اوائل القرن العاشر للهجرة ان يتخلّق الناس بالزعفران في بعض المواسم والاعياد والافراح.

وكان الطُهاة قديماً يكثرون اتخاذ الزعفران في جملة الابازير التي تُطيَّب بها الاغذية والقدور، وتُصبغ بها الحلواء لموائد الخلفاء والمتنعمين.(٥)

وقد مرَّ بنا قبلًا ان الزعفران كان يجيء بكثرة من كورة اصبهان وهو من مفاخرها. قال بعضهم يذكر محاسن اصبهان آسياً على فراقها:

ولها الزعفران، والعسل الما ذيُّ، والصافنات تحت الجلال

ولذلك قال الحجاج لبعض من ولّاه اصبهان: قد ولّيتك بلدة حجرها الكحل وذبابها النحل وحشيشها الزعفران.(٦) واشار ابن رسته الى فضل زعفران اصبهان

١) حوادث الدهور مدى الايام والشهور لابن تغري بردي، ليدن ١: ١١١

٢) النجوم الزاهرة ٥: ٥٤٥

٣) ابن اياس ٢: ٢٠٦   ٤) ابن اياس ٢: ٢١١

٥) كتاب الطبيخ واصلاح الاغذية المأكولات لابي محمد المظفر بن نصر الوراق. خزانة اكسفرد Hunt. 187 f°13-14

٦) معجم البلدان ١: ٢٩٤

على سواه فقال: «وبها من الزعفران الذي وان كان في غيرها من البلدان موجودًا فان فضله على كل ما في سائر المواضع ظاهر لانه اذكى رائحة وابين نفعاً واشبع صبغاً في كل ما يستعمل . ولا يبتاع في شي. من المواسم والاسواق التي يُجلَب اليها منه شي. ما دام يوجد زعفران اصبهان.»[1]

ومن مدائن الجبل التي اشتهرت بوفرة زعفرانها قُمّ . قال جعفر بن جرار كاتب ابن طولون:

تسحب ذيلين من خلوق قد أُغنيَا زعفران قُماً
كأنما أُخنيا عليها من طيب ما باشرا وشماً
فألقيَا زعفران قُمّ فانقسما فيه واستحماً[2]

ومنها مدينة همذان. قال بلديّها محمد بن بشار يفتخر:

بلد نبات الزعفران ترابه وشرابه عسل بماء قِنان[3]

وروى البشاري المقدسي ان بنهاوند وروزراوند من اقليم الجبال مزارع الزعفران.[4] وكان في بلد الروم مدينة صغيرة اسمها كِينُوك. اجتاز بها ابن بطوطة قال: «ونزلنا بدار عجوز كافرة وذلك ابان الثلج والشتاء . فاحسنّا اليها وبتنا عندها تلك الليلة . وهذه البلدة لا شجر بها ولا دوالي العنب . ولا يُزدرع بها الّا الزعفران. واتتنا هذه العجوز بزعفران كثير. وظنّت اننا تجار نشتريه منها.»[5] وكان في كيليكيَة من بلاد الارمن نوع فاخر من الزعفران يُحمل الى المغرب لرغبة المصورين فيه.[6] ومن الشرق دخل الزعفران اسبانية ، وكثر فيها وفي ايطالية ، حتى كان يحمل منها الى شتى الاقطار. وازدُرع ايضاً في افريقية ، وعُدّ في جملة ما يرتفع منها من التجارات.[7]

ومن اجل هذا الرواج الشديد في كل الاسواق على الزعفران وكثرة الحاجة

١) الاعلاق النفيسة ، ص ١٥٧
٢) العقد الفريد لابن عبد ربّه ٣: ١٢٨ و٢٦٦
٣) معجم البلدان ٤: ٩٨٢
٤) احسن التقاسيم ، ص ٣٩٢
٥) رحلته ، طبعة وادي النيل ، بمصر ، ص ١٨٦
٦) W. Heyd. *Histoire du commerce du Levant*, II, p. 668
٧) احسن التقاسيم ، ص ٢٣٩

اليه كان من هم الديارات العناية به في جملة مزروعاتها. كدير الكلب بنواحي الموصل. ودير مرّان بدمشق. ذكر ابو الفرج الاصبهاني الخالدي انه كان على قلعة مشرفة على مزارع الزعفران. وكدير مار ماروثا بظاهر حلب. واشهر الاديار التي كانت متخصصة به دير على رأس جبل مطلّ على نصيبين كان فرش ارضه من الزعفران. وسمي لذلك بدير الزعفران. قال الخالدي وشعر زعفرانه فائق. ومنه ومن العسل اكثر يسار رهبانه.[١]

ويظهر ان زراعة الزعفران قلّت او انقطعت في بعض المدن والديارات على اثر ما حلّ بها من الدمار والخراب. ولذلك كان تجار الزعفران يستجلبونه من جنوة في ايطالية، وبرسلونة في اسبانية. وكان الجنوي يفضل سائر الاجناس ولذلك كان يُقلَّد كثيرًا ويُغشّ. قال الفقيه ابو عبدالله محمد بن العبدري المشهور بابن الحاج المتوفى بالقاهرة سنة ٧٣٧ (١٣٣٦/٧ م):

«من المفاسد ما يفعله بعضهم. وهو انهم يأخذون الزعفران الجنوي والبرشنوني والهمداني ويخلطون الجميع ويبيعونه على انه كله جنوي. وذلك لا يجوز لان الجنوي يرغب فيه اكثر من غيره.»[٢]

---

١) مسالك الابصار، ص ٢٥٤–٢٥٥ و٢٠٥، ٢٣٢، ٣٢٥

٢) كتاب المدخل ٣: ١٢٤–١٢٥

دور الضيافة

اشتهرت الاديار في الجاهلية بايواء المجتاز بها، وضيافة اللاجىء اليها، والاحسان الى كل طارق محتاج. ولم يكن فيها وتتنذ دور خاصة بالضيافة بل كان نزول الاضياف في بعض الحُجَر فيها والقلالي. ثم جاء الاسلام فاوجب على النصارى في جملة الرسوم التي اراد بها إذلالهم «ان لا يمنعوا كنائسهم من المسلمين ان ينزلوها في الليل والنهار.»[1] وروى القاضي ابو يوسف، صاحب الامام ابي حنيفة، ان ابا عبيدة بن الجراح لما صالح اهل الشام اشترط عليهم، في جملة الشروط، ان يضيفوا من مرَّ بهم من المسلمين ثلاثة ايام.[2] فلم يكن من ثم بدٌّ من وجود مواضع في الديارات لمبيت الزوار وعابري السبيل. ثم كثر الاضياف والمتنزهون والمتطرّحون في الديرة لمعاقرة الخمر، والتبسّط في القصف والطرب. وتفاقم الداء بصحبة الجواري والحظايا لفريق من الامراء والمتطرفين واهل البطالة. وتأذّى الرهبان بمثل هذا الاختلاط، فاعوزت الحال الى بناء دور وحُجَر لهم خاصة، الى جانب الاديار، ينزل فيها كل من يغشاها من الناس والمسافرين. وتُقام لهم فيها الضيافات على اقدار كل منهم. وكانت هذه البيوت تُقام احياناً فوق القلالي والكنيسة، وهو ما يؤخذ من قول الخالدي في كلامه على عمر الزعفران «لهذا الدير بيوت للضيافة في علو الهيكل.»[3]

ومن الديارات التي نُصَّ على وجود بيوت للضيافة فيها:

١ «دير باعربا بين الموصل والحديثة. فيه بيت ضيافة ينزله من يجتاز به»[4]

٢ «دير باريشا بارض الموصل. قال الخالدي: رأيته في بعض السنين وكان به راهب يقال له كوريال (جبريال ؟) فاضافنا احسن ضيافة. واكرمنا غاية

١) جزء فيه بيان ما يلزم اهل الذمّة فعله ليقع التمييز بينهم وبين المسلمين في ملابسهم وغير ذلك، لابي يعلى محمد بن الحسين بن محمد بن الفراء، من مخطوطات خزانتنا، عليه سماع بتاريخ ٤٣٢ (١٠٤٥ م)

٢) كتاب الخراج، ص ١٦٥

٣) مسالك الابصار، ص ٣٠٥

٤) مسالك الأبصار، ص ٣٠٠

الاكرام بالطعام الكثير والشراب العتيق الواسع وعلف الدواب واكثر. فعظم في عيني وعاتبته على الإسراف في فعله. فقال هذا والله رسمنا مع كل من ينزل بنا.»[١]

٣ دير مر يحنا الى جانب تكريت. قال الشابشتي: «لا يخلو من المتطربين والمتنزهين ولا من مسافر ينزله. ولكل من طرقه من الناس ضيافة قائمة على اقدار المُضاف لا يُخلُّون بها. وعلى بابه صومعة عبدون الراهب رجل من الملكية بنى الصومعة ونزلها فصارت تعرف به. وهو الآن المستولي على الدير والقيّم به وبن فيه. وقد بنى الى جانبه بناء ينزله المجتازون فيقيم لهم الضيافة ويحسن لهم القرى.»[٢]

٤ دير الاسكون. وهو «راكب للنجف. وفيه قلالي وهياكل ورهبان يقيمون الضيافة لمن ورد عليهم.»[٣]

٥ دير مرّان بدمشق. اشتهر بضيافة ابي الفرج الببّغا، شاعر سيف الدولة، والتجاء احد آل المادرانيين فيه حين خشي الافلاس. واختبأ مع غلامه في قلّية منه «فضيّة الحيطان رخامية الاركان» استزار فيها ابا الفرج. وانقضت لهما فيها بين الطرب والهوى ليلة من ليالي الدهر خلّد البنا. ذكرها في حكاية له رصّعها بنثره الشائق وشعره الفائق. ونقلها الثعالبي في يتيمته وابن ظافر في كتابه بدائع البدائه. ومن مطالعتها يعرف ما كان يجري احياناً وراء حدران القلالي ودور الضيافة في البيع والاديار من المجون والجنون.

٦ «دير سمعان بظاهر انطاكية وهو مثل نصف دار الخلافة ببغداد يضاف به المجتازون.»[٤]

٧ دير القاروص على جانب اللاذقية من شمالها. اغفل ذكره ياقوت، ولم يُشِر اليه غير صاحب مسالك الابصار. قال ابن بطوطة في رحلته: «هو اعظم

١) مسالك الابصار، ص ٣١٤
٢) كتاب الديارات، ص ٧٣–٧٤
٣) مسالك الابصار، ص ٣١١
٤) معجم البلدان ٢: ٦٧٢

دير بالشام ومصر يسكنه الرهبان ويقصده النصارى من الآفاق . وكل من نزل به من المسلمين فالنصارى يضيفونه . وطعامهم الخبز والجبن والزيتون والخل والكبَر . »[١]

وكان بعض الاضياف ، ولا سيما من وجوه الدولة والامراء وذوي قرابة الخلفاء ، لا يبالون بابتذال مثل هذه الابنية الرهبانية وإطلاق العنان فيها لشهواتهم في عشرة القيان والغلمان . واشتهر منهم ابو علي بن الرشيد بملازمة دير مرّيان ببغداد والشرب فيه . « وكان له قيان يحملهنَّ اليه ويقيم به الايام لا يفتر عزفاً وقصفاً وكان شديد التهتك . وكان من يجاور الموضع يشكون ما يلقونه منه . »[٢]

ونظير ذلك ما كان يجري في دير الزندورد . « حكى عبد الواحد بن طرخان قال : خرجت الى دير الزندورد في بعض اعياده متطرباً متنزّهاً ومعنا جحظة في جماعة من اخواني . فنزلنا موضعاً حسناً . ورافقنا هناك جماعة من ظراف بغداد . لجميعهم معشوقات حسان الوجوه والغناء . فاقمنا به اياماً في اطيب عيش . وقال جحظة فيه شعراً . ذكر الدير وطيب الوقت ومن كان معنا وغنّى فيه لحناً حسناً وهو :

سقياً ورعياً لدير الزندورد ، وما يحوي ويجمع من راح وريحان
دير تدور به الاقداح مترعة من كف ساقٍ مريض الطرف وسنان
والعود يتبعه نايٌ يوافقه ، والشدو يحكمه غصن من البان
والقوم فوضى ، ترى هذا يقبّل ذا وذاك انسان سوء « جنب » انسان[٣]

ومن اقبح ما كان يجرّه على الاديار والكنائس ألعهد القاضي بايواء كل مسلم عابر سبيل نزول بعض اللصوص والفسّاق ، وارتكابهم فيها المحرّمات والكبائر . وإفساد بعض المترهبين والمترهبات . كأبي الطحان القيني « قيل له — وكان فاسقاً خارباً — ما ادنى ذنوبك . قال ليلة الدير . قيل له وما ليلة الدير .

---

١) مسالك الابصار ، ص ٣٣٦ ؛ ورحلة ابن بطوطة ، مطبعة النيل ، ١ : ٤٧

٢) الديارات للشابشتي ، ص ١٣

٣) مسالك الابصار ، ص ٣٧٤

قال نزلت بديرانية فأكلت عندها طفشيلاً[1] بلحم خنزير . وشربت من خمرها وزنيت بها وسرقت كساءها . ثم انصرفت عنها . »[2]

وقريب منه ما فعل عبادة المخنث « كان لما نفاه المتوكل الى الموصل يمضي الى دير الشياطين (غربي دجلة من اعمال بلد) فيشرب فيه ولم يكن يفارقه . فهوي غلاماً من الرهبان بالدير . وكان من احسن النساس وجهاً وقداً . فهام به وجُنّ ولزم الدير من اجله . ولم يزل يخدمه ويلاطفه ويعطيه الى ان سلخ الراهب عن الدير وخرج معه . وفطن رهبان الدير بعبادة وما فعل من إفساده الغلام فارادوا قتله بان يرموه من اعلى الدير الى الوادي . ففطن بهم وهرب ولم يعد الى الموضع . »[3]

ولاحمد بن ابي طاهر يذكر ليلة قضاها في دير السوسي :

سقى سُرَّ من را ، وسكانها ، وديراً لسوسيها الراهب
فقد بتُّ في ديره ليلة وبدر على غصن صاحبي
غزال سقاني حتى الصبا ح صفراء كالذهب الذائب
سقاني المدامة مستيقظاً ونام ونام الى جانبي
فكانت هِنات لي الويل من جناها الذي خطّه كاتبي[4]

ولعل هذه الهنات من التخيلات التي يهيم بها الشعراء في اودية الشعر او من قول ما لا يفعلون . ولا ريب ان كثيرين من اضياف الديارات كانوا لا يرون اقل حرج على من شاء منهم الاستسلام للشهوات واتيان انواع المنكرات :

« متى » يحل على دير ابن كافرة من النصارى ببيع الخمر مشهور[5]

---

١) الطفشيل نوع من المرق وضبطه في تاج العروس بتقديم الياء على الشين كسميدع والصواب ما حكيناه . قال ابو نواس يهجو رجلاً :

لو كنتَ لوناً كنت طفشيلةً او طائراً اصبحتَ مكاًّ .

(ديوانه . باريس ٤٨٢٩ ، ص ٢٦٠)

وقال ابو شراعة ، احد شعراء الدولة العباسية :

عنيَّ جودي لبرمة الطفشيل ، واستهلّي فالصبر غير جميل (الاغاني ٢٠ : ٢٦)

٢) الاغاني ١١ : ١٣٢

٣) الديارات للشابشتي ، ص ٧٩

٤) مسالك الابصار ، ص ٢٦٢

٥) مسالك الابصار ، ص ٢١٢

حانات الديارات

كان إلحاق الحانات بالديارات لا شك بعد الاسلام . أنشئت فيها على اثر اعتياد المسلمين ابتياع الخمور من الرهبان ، وطروقهم القلاليّ حتى في ظلمات الليل ، واختلاطهم بهم في اوقات العبادات والصلوات . فلم يروا بدًّا من التحوّط والتصوّن . وعزل مستودعات الشراب بمنأى عن الهياكل والمعابد . وجعلها في حيّز المعاصر . وقد اخطأنا التوفيق في البحث عن وصف لمشتملات الحانات في نثر او شعر . او ايما . الى كيفية بنائها ووجه استغلالها . ويستدلّ من بعض الروايات ان طائفة من الاديار والقلالي بقيت مع ذلك تحفظ الخمر في مخادع ضمن اسوارها وتبيعها رأساً لزوّارها ، وهو ما يستفاد من قول القائد ابي عبدالله محمد بن خليفة السنبسي ، احد شعراء سيف الدولة صدقة بن دُبَيس :

ولربّ دير قد قصدنا نحوه في فتية ، ناء عن الاسواق
فطرقتُ باجم . فقال كبيرهم : اهلًا بزائرنا ، وبالطُرّاق
ومضى بجوله وغاب هنيهةً في مخدع ناء ورا اغلاق
وأتى بها بكرًا تخال حبابها فوق الدنان نواظر الاحداق(١)

ومن الديارات التي اشتهرت بكثرة حاناتها :

١ « دير سابُر في الجانب الغربي من دجلة في بقعة كثيرة البساتين والكروم والثمار والحانات والخمارين .»(٢)

٢ « دير جرجس بالمزرفة على شاطئ دجلة والبساتين محدقة به . والحانات مجاورة له .»(٣)

٣ دير سرجيس بطيرناباذ بين الكوفة والقادسية « كانت ارضه محفوفة بالنخل والكروم والشجر والحانات والمعاصر .»(٤)

١) خريدة القصر للعماد الكاتب . باريس ٣٣٢٦ ، ص ١١٧
٢) الديارات للشابشتي ص ٣١ ، ومسالك الابصار ، ص ٢٧٦
٣) الديارات للشابشتي ص ٢٧ ، ومسالك الابصار ، ص ٢٨١
٤) الديارات للشابشتي ص ١٠٢ ، ومسالك الابصار ، ص ٢٨٤

٤ دير زرارة بين الكوفة وحمام اعين وهو « كثير الحانات والشراب.»(١)

• دير اشموني بقطربلّ. وعيده اليوم الثالث من تشرين الاول... لا يبقى احد من اهل التطرب واللعب الا خرج اليه... ويعمرون شطّه واكنافه. وديره وحاناته.(٢)

٦ « دير قوطا بالبَرَدان على شاطئ دجلة. وهو يجمع احوالاً كثيرة منها. ان الشراب هناك مبذول والحانات كثيرة.»(٣)

ومن الغريب ان اديار النساء الرواهب كانت نفسها محفوفة بمثل هذه الحوانيت والخمارات باخطارها واضرارها. كدير العذارى بجانب العَلْث بين سامرّا وبغداد « كانت حوله حانات للخمارين وبساتين ومتنزهات. لا يعدم من دخله ان يرى من رواهبه جواريَ حسان الوجوه والقدود والالحاظ والالفاظ. قال الخالدي: ولقد اجتزت به فرأيته حسناً. ورأيت في الحانات التي حوله خلقاً يشربون على الملاهي... وانشد جحظة لنفسه:

قالوا: قميصك منسور بآثار ... من المدامة، والريحان، والقار
فقلت من كان مأواه ومسكنه ... دير العذارى، لدى حانات خمّار
لم ينكر الناس منه ان حُلَّته ... خضراء كالروض او حمراء كالنار»(٤)

ولسنا نعلم هل كانت ادارة هذه الحانات تعقد احياناً لاحد رهبان الدير ام تُضَمَّن في الاعمّ الاغلب لبعض الخمارين. ولدينا نصوص لا تحتمل التأويل شاهدة بان من الحانات ما كان في ايدي القسوس والرهبان كالتي في دير مارت مريم بالحيرة. ذكر ابو الفرج الاصبهاني انه كان فيه قسّ يقال له يحيى خمّاراً وابن يقال له يوشع تألفه الفتيان الظرفاء.(٥) ومثله عُمَر نصر بسامرّا وهو من متنزهات آل منذر بالحيرة. وكان الحسين بن الضحاك احد خلعاء الشعراء يألفه.» وكان

---

١) الديارات للشابشتي ص ١٠٧، ومسالك الابصار، ص ٢٨٦

٢) الديارات للشابشتي ص ١٨-١٩

٣) الديارات للشابشتي ص ٢٠

٤) مسالك الابصار، ص ٢٥٨-٢٥٩

٥) مسالك الابصار، ص ٢١٨ وفي المتن المطبوع: «كان قس يقال له يحيى بن حمار ويقال له يوشع» وفيه تشويش وتحريف ظاهر. والصواب ما صححناه.

الى جانبه خمّار يقال له يوشع. وله ابن امرد حسن الوجه شماس. فكان الحسين يتألف الخمار من اجل ابنه حباً له.»[١] وله في هذا العُمر ابيات منها:

خمّار حانتها ، ان زرت حانته ، اذكى مجامرها بالعود والنار
يحتثّ كالغصن في سُلُب مسوَّدة كأن دارسها جسم من القار[٢]

اي في ثياب سوداء كالقار. وهو ما يدل على ان الشماس كان يتولّى الحانة ايضاً. ولعله كان خازنها اي ، كما يقال اليوم ، امين صندوقها، مثلما كانت الحال في دير مرّان بدمشق حيث كان القس خمّاراً وابنه الشماس وزّاناً صيرفياً، على ما ذكره ابن ابي حجلة الدمشقي في قصيدة قال فيها:

شمّاسه هو وزّان ومنتقد ، وقسّه هو خمّار وكرّام[٢]

وقد صرّح ابو عبد الرحمن الهاشمي السلماني بان ساقيه كان ابن القسيس حيث قال:

سقاني ابن قسيها كأسها على زورة من حبيب ألمّ[٣]

ومعلوم ان القسوس في الشرق كانوا يتزوّجون دفعة واحدة في العمر. ولا تزال هذه العادة متّبعة في بعض القرى والمدن. وكان احدهم لا يؤهّل للاسقفية او البطريركية الّا بعد وفاة امرأته. ومن اشهر من عُرف منهم البطريرك مكاريوس الزعيم الحلبي، وكان في صحبته دائماً ابنه الشماس بولس. ولما كان لا بد لهم من القيام بأود اولادهم كانوا يضطرّون ، اذا قعدت بهم الحال احياناً ، الى اتخاذ بعض الحِرَف. ولذلك قام منهم عدة خمّارين لبيع خمور البِيَع والديارات.

وربما تولى احد رهبان الدير ادارة حانته. وللحسن بن هانئ يذكر دير الأُكيراح وان ساقي الراح في حانته كان راهباً يلبس مدرعة صوف فوق مسح الرهبانية:

يا طيبةٌ ، وعتيق الراح تحفتهم ، بكل نوع من الطاسات رحراح
يسقيكها مُدمّج الخصرين ذو هَيَف اخو مدارع صوف فوق امساح[٤]

---

١) معجم البلدان ٣ : ٧٢٥

٢) برق الشام. خزانة ليدن Arabe 1466, 64

٣) مسالك الابصار ص ٣٢٩

٤) ديوان ابي نواس. خزانة الفاتيكان ، رقم ٤٥٦ ، ص ١٠٠

ويُنشد لابي العيناء في دير باشهرا على شاطئ دجلة ، وفيه تصريح بان الساقي كان الربّان قسيس الدير :

نزلنا دير باشهرا على قسيسه ، ظُهرا
على دِيْنِ ايسوعٍ ، فما أنقى ، وما أسرى
فاولى من جميل الفعـــلِ ما يستعبد الحُرّا
وسقّانا ورَوَّانا من الصافية العذرا
فطاب الوقت في الديـــر ، ورابطنا به عشرا
وسُقّينا به الشمس ، وأخدمنا به البدرا
وأُحيَت لذة الكأس ولكن قتّلت سكرا
ونلنا كل ما نهوا هُ من لذاتنا ، جهرا
تصابينا ، وغنّينا ، وأرغمنا به الدهرا
فتكنا ، وتفتّكنا ، ومثلي هتك السترا
وقــد ساعدنا ربّا نُ طوعاً منه ، لا جبرا
جزاه الله عن خير بــه قابَلنا خيرا
فقد اوسعه شكرًا كما اوسعنا برًّا (١

وفي قوله ان الربّان ساعده على لذّاته طوعاً شاهد على ما كان يقوم به احياناً بعض القسوس في خدمة الندامى من المجاملات المنكرة .

وللشعراء عدة ابيات تقدم بعضها ذكروا فيها استباءهم الخمر من ايدي الرهبان والراهبات ، فضلًا عن منادمتهم عليها بعض فتيان الدير وفتياته بالثياب السود والأمساح . ومنها لتاج الدين محمد بن حواريّ :

وربَّ ديرٍ طرقنا بابه سحرًا ، وللنواقيس في اعلاه اصوات
في فتية كالنجوم الزهر ، اوجههم منيرة اشرقت منها الدُجُنّات
فقال راهبه : من ذا ؟ فقلت له : قوم اليك لهم في الدير حاجات
فقام يسعى الى إكرامنا عجلًا وقال : بشرى لكم عندي المسرات
هُبّوا فما العيش الا ان يطوف على الـــندامى ، في الدير ، طاسات وكاسات (٢

ولا حاجة الى التنبيه على ان مثل هذه الاقوال المنسوبة الى الرهبان والقسوس في الاديار ليست الا من افانين الشعر التي يُراد بها التحسين والإغراب فلا يجب ان تؤخذ على ظاهرها .

---

١) الديارات للشابشتي ، ص ٣٢-٣٣

٢) الجزء العشرون من عيون التواريخ للكتبي . الخزانة التيمورية ، ص ٢٢٧-٢٢٨

ولابن الحكاك ابي الحسن بن محمود الخجندي الموصلي في دير سعيد:

رهبان دير سعيد بتُّ عندهم   في ليلة نجمها حيران مرتبكُ
فجاء راهبهم يسعى ، وفي يده   مدامة ما على شرّابها دَرَكُ
كالشمس مشرقها كأس ، ومغربها   فم النديم ، وكفّ الساقي الفلكُ
ما زلت اشربها حتى زَوَت نشبي   عني ، كما زُوِيَت عن فاطم فَدَكُ
من كف اغيد تحكي الشمس طلعته ،   في خده الورد والنسرين مندعكُ (١

ونظيره قول ابي الحسين محمد بن ميمون الكاتب في دير باقوقا. ذكره ابن المستوفي في تاريخ اربل:

نزلت بدير باقوقا ، وفيه   من الرهبان لي خدن مقيمُ
فالمقني بصهباء شمول   يفوح بعنبر منها النسيم
ونادمني برهبان ملاح   وفيهم شادن حسن رخيم (٢

وفي منادمة الرهبان الملاح للشاربين المسلمين موضع نظر. ومثل هذه الدعوى لا شك من تخيلات الشعراء ومبالغاتهم المعتادة.

ومن اقبح ما هنالك ان الساقي كان يكون حيناً ابنة قس الدير ، صاحب الحانة. روى العمري ان الفضل بن اسمعيل بن صالح بن عبدالله بن العباس نزل يوماً دير يونس مقابل الموصل « فرأى فيه حسناء ابنةً لقسّ كان فيه فخدمته مدة مقامه ثلاثة ايام. وجاءته بشراب صافٍ عتيق. فلما اراد الانصراف اعطاها عشرة دنانير ورحل. وقال في طريقه ابياتاً اولها:

عليك سلام الله ، يا دير ، من فتى   بمهجته شوق اليك طويل

وآخرها:

ابا ابنة قسّ الدير قلبي مدلَّه   عليك ، وجسمي مذ بعدت عليل (٣

وللشهاب العمري حين زار الدير الابيض من الديارات السبعة في مصر ابيات نظمها فيه ، وذكر ان ساقيتهُ كانت من بنات القسوس فقال:

وكأس المدام علينا تطوف   بحمراء صافية كاللهبْ
يطوف بها من بنات القسو   س باخلة الكفّ ليست تهبْ

---

١) التاسع من الجامع المختصر لابن الساعي. الخزانة التيمورية ، ص ٢٠١

٢) مسالك الابصار ، ص ٢٨٦

٣) مسالك الابصار ، ص ٢٤٦-٢٤٧

مبتلة ، بين رهبانها ، لالحاظها في حشانا رَهَب
مسيحية طلعت في المسوح كصبح اطلّ وليل ذهب[١]

ولا يخفى ما في تعرُّض بنات القسوس لماطاة الكؤوس من التبذّل والاستهداف لاخطار عربدة السكارى. وربما انتهت بين هذه المنادمة الى الخروج من عصمة الدين ، والدخول في ربقة الاسلام . ومن اشهر من أدّت بهنّ مثل هــذه الحال الى سوء المآل شعانين ابنة قسّ دير صليبا بدمشق حين طاوعت الخليفة العباسي المتوكل على الله على الاسلام ، والتزوج به ، كما نقلناه في كلامنا على دير باب الفراديس[٢].

وقريب من هذه الاخطار بيع الرواهب للخمر احياناً حتى في ظلمات الليل. وهو اشد قبحاً من بيع بنات القسوس . ومن الابيات التي وردت شاهدة بمثل هذا التجوّز والتسامح قول ابن نباتة المصري:

وراهبة طرقناها بليل ، ودون مزارها ارج يفوح
فهبّت في الظلام الى مدام كأن شعاعها قَبَس يلوح
وحيّتنا بصافية شمول ، كما يترقرق الدمع السفوح
كأنّا قد سلبنا الديك عيناً ، فنام من الكرى فزعاً يصيح[٣]

على ان اكثر حانات الديارات كانت ، دون ريب ، تُضمَّن لبعض الخمارين من عوام النصارى ، وهم اسلس مقاداً واقل عناداً في الدفاع عن حوزة الادب والعفة. فكانوا لا يرون بأساً في التوسّل بكل وسيلة لاجتذاب الشبان والمجّان وعشّاق بنت الحان . وفي طليعة هذه الوسائل اختيار السقاة عندهم والمغنين من احسن الناس وجهاً وقدّاً من الغلمان والجواري . وعقد ادارة الحانة الى اجمل الفتيان واحذقهم في الشراب ، وابرعهم في الحثّ على التلذّذ والطرب. كحانة دير اللج في الحيرة مثلاً ، وهي التي قيل فيها:

بتنا بدير اللجّ في حانة شرابها في الكأس مكبوب
يديرها ظبي هضيم الحشا يحبّــه الشبّان والشيب
حتى اذا ما الخمر مالت بنا جرت امور واعاجيب

---

١) مسالك الابصار ، ص ٢٨٣
٢) الخزانة الشرقية ٢ : ١٣-١٦
٣) ديوانه ، طبعة مصر ، سنة ١٩٠٥ ، ص ١١٧

فما ترى ظنك في شادنٍ بات الى جانبه ذيب (١

ونظيرها دير حنة. وكان بالكوفة رجل اديب ضعيف الحال، مهما وقع في يده شي. اتى به دير حنة فيشرب حتى يسكر. ثم ينصرف الى اهله، وهو القائل:

ما لذة العيش عندي غير واحدة: هي البكور الى بعض المواخير
لخامل الذكر، مأمون بوائقه، سهل القياد من الفرّوه المدابير
حتى يحلّ على دير ابن كافرة من النصارى ببيع الخمر مشهور
كأنما عقد الزنار فوق تقاً، واعتمّ فوق دجى الظلماء بالنور(٢

لا جرم ان الاقبال على مثل هذه الحانات التي اجتمعت فيها لذة البصر والسمع والشم والذوق كان عظيماً عميماً. ولذلك كثر السكر فيها، وغلب المتطرّحون في افنيتها من الخلعاء. ومجّان الشعراء. من رجالات الادب واشراف العرب، نظير ابي الشبل البرجمي، وعبدالله بن العباس بن الفضل بن الربيع، وابي جفنة القرشي، وابي الطيب محمد بن القاسم النميري، وعمرو بن عبد الملك الورّاق، وابي شاس منير، ومصعب الكاتب، ومهلهل بن يموت بن المزرّع العبدي؛ وبكر بن خارجة، ومطيع بن اياس، ويحيى بن زياد، والحسين بن الضحاك، وجحظة البرمكي، ومحمد بن عبد الرحمن الثرواني، وكان آخر امره ان أُصيب في حانة بين زقّي خمر، وهو ميت.(٣ وكثيرين غيرهم. ولاحدهم، مهلهل بن يموت، يصف غرامه بالشرب في دير الطور:

يا غلام، اسقني فقد ضحك الـوقت وقد تمّ طيب هذا الزمان
أدنِ مني الدنان، صبّ الاباريق، استحثّ الكؤوس، صفّ القناني(٤

ومنه اخذ الصنوبري قوله في دير زكّى من ابيات:

يا خليليّ، هاتا عللاني عاطياني الصهباء، لا تذراني!
أبدا الملاء، أبدا الملاء، قوما، أدنيا أدنيا بنات الدنان(٥

---

١) مسالك الابصار، ص ٢٢٦
٢) مسالك الابصار ٢ ص ٢١٢
٣) الديارات للشابشتي، ص ٢٠، ٢٥، ٢٧، ٢٨، ٧٤، ٨٣، ٩٠، ١٠١، ١٠٦، ١٠٩
٤) مسالك الابصار، ص ٢٢٨
٥) الديارات للشابشتي، ص ٦٨

ولاسماعيل بن عمار الاسدي يحف سكرة له بدير اللج ، وهو احسن ديارات الحيرة وانزهها . ولم نقف على ابيات اظرف والطف منها واصدق في تشبيه السكارى وقيامهم يتمثّرون الى الصلاة بعد فواتها :

ما انسَ سُعدة والزرقاء(١ يومَهما باللج ، شرقيَّهُ فوق الدكاكين
تقتنانا كنفث السحر تودعه منا قلوباً غدت طوع ابن رامين
يسقي شراباً كلون النار عتّقه يمي الاصحاء منه كلمجانين
اذا ذكرنا صلاة بعد ما فرطت قمنا اليها ، بلا عقل ولا دين
نمشي اليها بطاء ، لا حراك بنا ، كأن ارجلنا يُقلَعن من طين
نمشي ، وارجلنا عوجٌ مواقعها ، مشيَ الاوزّ التي تأتي من الصين
او مشيَ عميان دير ، لا دليل لهم سوى العصيّ الى عيد السعانين
اهوى رُيحة إنّ الله فضّلها بحسنها وغناء ذي افانين
فمن يقول لها غنّي ويسعدني قتلتِني يوم دير اللُّجّ فأحييني(٢

ولما كانت الحانات منسوبة دائماً الى اديارها استجاز الشعراء — وهم يقولون ما لا يفعلون — ان يفتخروا بالسكر في القلالي والكنائس . ولذلك قال ابو نصر المنازي :

هذا وكم لي بالكنيسة سكرة انا من بقايا شربها مخمور(٣

على ان بعض الزوّار من وجوه الدولة واعيانها كانوا يتغلبون بسطوتهم وجاههم على كل قانون للكنائس والاديار ، ويعاقرون الخمر ضمن اسوارها ، دون اكتراث بالرهبان . وقد سبق ان امير مصر ابا الجيش خمارويه بن طولون كان يسكر في دير القصير بمصر ، وهو ينظر الى صورة للعذراء كان شديد الإعجاب بها . وقد مرّ بنا عدة ابيات للشعراء صرحوا فيها بما كان يجري في الاديار من التبذل والقصف والاسترسال في الشهوات ، وهو ما لا بد من التوسع في شرحه فيما يأتي وايراد الشواهد عليه دفعاً لكل شك وارتياب .

---

١) سعدة ، والزرقاء ، (سلّامة) ، ورُبَيحة ، المذكورة فيما بعد ، منّ جوار مغنّيات كنّ لابن رامين ، وهو مولى عبد الملك بن بشر بن مروان .

٢) معجم ما استعجم للبكري ، ص ٣٦٧

٣) معجم البلدان ٤: ٦٤٩

تغزّل الشعراء بغزلان الديارات

واحتيال الزوّار لمنادمتهم والشرب على وجوههم

للشعراء والمغنّين وعشّاق الخمور النصرانية مقطّعات وقصائد تغزلوا فيها بالشمامسة والرهبان والراهبات وذكروا اختيارهم كل صبيح الوجه بينهم للمنادمة والشرب والمجالسة والمداعبة . واطلقوا العنان لقرائحهم في التصوّر والتمنّي والابتداع والتوهم . حتى اصبح غزل خمريّاتهم اشبه بغزل قصائد المدح في كونه وليد الفكر ونتاج التخيّل والحلم ، واسلوباً من اساليب التفنّن في النظم . وفيما زعموه وحكوه من وقائعهم واحاديثهم ما يفوت حد الإمكان ، ولا يجوز مثله في تقدير ولا حسبان . واذا صدق ما حكاه بعضهم كان حسب الزائر وقتئذٍ ان يلج باب الدير ويستدعي شرابه ليكون له الحق في اختيار اول مليح او مليحة فيه ليشرب ويغني ويطرب بالنظر الى محاسنها والتلذّذ بخطابها . ثم يخرج من الدير وبه «سُكران سكر هوًى وسكر مدامة .» وهو ما حكاه اسحق الموصلي المغني المشهور حين خرج مع الرشيد الى الرقة ، ومرّ بدير القائم وطاف فيه . قال : « فرأيت ديرانيّة حين نهد ثدياها وعليها المسوح . ما رأيت احسن من وجهها . وكأن تلك المسوح عليها حلي . فدعوت بنبيذ وشربت على وجهها اقداحاً . ثم دعوت بالعود فغنّيت في الدير صوتاً مليحاً ظريفاً وما زلت اكرره واشرب وانظر اليها وهي تضحك من فعلي حتى سكرت ».[1] وهذه الحكاية اشبه بما يجري في المواخير ودور القيادة منها بما يليق ان يكون في بيوت الزهد والعبادة .

ومن وقف على معظم ما حفظته الرواة من الاخبار والاشعار المقولة في هذا المعنى وتدبر ما ورد فيها من المزاعم والاشارات الى منادمة المسلمين احداث الاديار وتحيلهم بكل حيلة من لبس المسوح والصلبان . وتناول القربان . والتمسّح بالايقونات . وحضور الصلوات . حبّاً بالتقرب منهم وايناسهم . والتلذذ بمجالستهم

١) مسالك الابصار ص ٢٦٩–٢٧٠

والنظر اليهم . يبدو الى وهمه ان اعراض سكان الديارات كانت وتتنذر لحماً على وضم يتناوله من شآ . وان بيوت الصلاة كانت اولى ان تسمّى بيوت الريبة . ولكن اذا تذكر ان الشعر اعذبه اكذبه تحقق ان كل ما هنالك من دعوى الاستمتاع وقصص المنادمات والمداعبات لم يكن في الحقيقة الّا ضرباً من ضروب الوشي والتطريز في النظم يُراد به مجرّد الإغراب والإطراب .

وقد اخترنا من هذه المنظومات الديرية كل ما رأيناه جديراً بالتأمل والاعتبار او وجدنا في ايراده فائدة ونكتة . واول ما نبدأ منها بابيات مشهورة لابن المعتز في راهب من دير عبدون تخيّل انه جاءه « في ظلام الليل » . وفي احدى الروايات « في قميص اللاذ مستتراً » فقال :

سقى المطيرة ذات الظلّ والشجر ودير عبدون هطّال من المطر
يا طالما نبهتني للصبوح بهِ في ظلمة الليل والعصفور لم يَطِر
اصوات رهبان دير في صلاتهم سود المدارع نعّارين في السحر
كم فيهم من مليح الوجه مكتحل بالسحر يطبق جفنيه على حَوَر
لاحظته بالهوى حتى استقاد له طوعاً واسلفني الميعاد بالنظر
وجاءني في ظلام الليل مستتراً يستعجل الخطو من خوف ومن حذر
فقمت افرش خدّي في التراب له ذلّاً واسحب اذيالي على الاثر
فكان ما كان مما لست اذكره فظُنَّ خيراً ولا تسأل عن الخبر (١

وعلى شاكلتها قول عمر بن عبد الملك الورّاق في دير مار يُحنّا الى جانب تكريت . وان كان دونها في الجودة والاحسان :

اری قلبي قد حنّا الى دير مريحنّا
الى غيطانه الفُسحى الى بركته الننّا
الى ظبي من الانس يصيد الانس والجنّا
الى غصن من الآس به قلبي قد جُنّا
الى احسن خلق اللهِ ان قدّس او غنّى
فلما انبلج الصبح بزلنا بيننا دنّا
ولما دارت الكأس ادرنا بيننا لحنا
ولما هجع الناس غنّا وتعانقنا (٢

١) معجم البلدان ٢ : ٦٧٨

٢) معجم البلدان ٢ : ٧٠١

واجتاز الشاعر الكندي المنبجي يوماً بدير مار ماعوث على شاطئ الفرات فاستحسنه . قال: ورأيت في رهبانه غلاماً كما عذَّر قد ترهب . فخاطبته فاذا به احلى الناس الفاظاً على لثغة فيه تجمل السين ثاء . فشديت سُماريّتي[1] الى جانب الدير واشتريت شراباً من الرهبان . وبتُّ هناك منادماً لذلك الغلام . فلما اردت الرحيل انشدتهُ :

يا طيب ليلة دير مر ماعوث ... فسقاه رب الناس صوب غيوث
وسقى حمامات هناك صوادحاً ... ابداً على سِدْر هناك وتوث
ومورَّد الوجنات من رهبانه ... هو بينهم كالظبي بين ليوث
ذي لثغة فتّانة فيسمّي الطا ... ووس حين يقول بالطاووث
حاولت منه قبلة فاجابني ... لا والمسيح وحرمة الناقوث
أتراك ما تخشى عقوبة خالق ... تمثيه بين شمامث وقثوث
حتى اذا ما الراح سهّل حَثُّها ... منه العسير برطله المحثوث
نِلت الرضى وبلغت قاصية المنى ... منه برغم رقيبه الديّوث[2]

وقريب من هذه الابيات قول مصعب الكاتب في دير الزعفران :

عمرت بقاع عمر الزعفران ... بفتيان غطارفة هجان
ظللنا نعمل الكاسات فيه ... على روض كنقش الخسرواني
وغزلان مراتعها فؤادي ... شجاني منهم ما قد شجاني
رضيت بهم من الدنيا نصيباً ... غنيت بهم عن البيض الغواني
اقبّل ذا والثم خدّ هذا ... وهذا مُسعد سَلِس العنان[3]

وللسريّ الرفّاء في غزلان الدير يذكر ليلة سكر فيها بقطربُلّ وقال من جملة ابيات :

ودير شُغفت بغزلانه ... فكدتُ اقبّل صلبانها[4]

وايسر خطباً مما تقدم قول الفضل بن العباس بن المأمون في دير مار ماري في سرَّ من رأى :

أنضيتُ في سُرَّمن را خيل لذاتي ... ونلت منها مُنى نفسي وشهواتي
عمرت فيها بقاع اللهو منغمساً ... في القصف ما بين انهار وجنّات

---

١) السماريّة والافصح السُّمَيْريَّة ضرب من السفن .
٢) مسالك الابصار ص ٢٦٣ ، ومعجم البلدان ٢ : ٧٠١
٣) معجم البلدان ٢ : ٦٦٣-٦٦٤
٤) يتيمة الدهر ، طبعة دمشق ، ١ : ٤٩٨

بدير مر مارِ اذ نُحيي الصبوح به ... ونُعمل الكأس فيه بالمشيّات
بين النواقيس والتقديس آونـةً ... وتارةً بين عيدان ونايات (١

ومثلها قول موفق الدين بن ابي الحديد المدايني وهو بدير ميخائيل بالموصل يشبب باحد رهبانه من « المرتلين » :

يا ساكني دير ميخائيل لي قمر ... لكنه بشر في شكـل تمثال
قريب دار بعيد في مطـالبه ... غريب حسن والحان واقوال
سكرت من صوته لما اثار به ... ما لست اسكر من صهباء جريال
ما رمت امساك نفسي عند رؤيته ... الّا تنبرت من حال الى حال
يا ليلتي بفناء الدير لست كمن ... يقول يـا ليلتي بالشيح والضال
قد صرتُ انشد بيتاً صار لي مثلًا ... لولا وصالك لم يخطر على بالي
لو اشتريت بعمري ساعة سلفت ... من عيشتي معكم ما كان بالغالي (٢

وللببغاء في دير الزعفران ، وقد صحب فيه راهباً ماجناً زعم انه « تجاوز له عن صومه وصلاته » :

صفحتُ لهذا الدير عن سيئاته ... وعددت يوم الدير من حسناته
وصبّحت دير الزعفران بصحبة ... اعادت سرور القلب بعد وفاته
عمرت محل اللهو بعـد دثوره ... وألّفت شمل الانس بعد شتاته
وعاشرت من رهبانه كل ماجن ... تجاوز لي عن صومه وصلاته
واهيف فاخرت الرياض بحسنه ... فأذعن صغرًا وصفها لصفاته
جلا الاقحوان الغضّ نوّار ثغره ... ونال بغصن البان عن حركاته
واسكرني بالعذب من فم ريقه ... واتحفني بالورد من وجناتـه
ولما دجا الليل استماد سنا الضحى ... براحٍ نأت بالليل عن ظلماته
نصيبيّة ديريّة كاد كـرمهـا ... بجوهرهـا ينهلّ قبل نباته
فاهدى اليها الورد من صبغ خده ... وايّدها بالفتك من لحظاتـه
الى ان تهادى بين نحري ونحره ... صليب يفوح المسك من نفحاته
ونمّ الينا دُنّها بضيائهـا ... فواهًا لقلب ضاق عن خطراته
وما زال يسقيني ويشرب والمُنى ... تبشرني عنه بصدق عداتـه
وخوّفني منـه فخلت صليبه ... لشدة ما يخشاه بعض وشاتـه (٣

ودخل يوماً سبط ابن التعاويذي الشاعر المشهور دير الثعالب في ضواحي

---

١) معجم البلدان ٢ : ٧٠٠

٢) الجزء العشرون من عيون التواريخ للكتبي ، الخزانة التيمورية ص ١٢٩

٣) الجزء الثاني عشر من عيون التواريخ للكتبي ، الخزانة التيمورية ص ٢٠٣

بغداد يوم عيد للنصارى فرأى شماساً فيه وسيماً فقال فيه ارتجالاً:

وغزال علقتهُ يوم دير الشالب
من ظباء الصريم يخطر في زيّ راهب
كالقضيب الرطب يو هيه حمل الذوائب
شدَّ زناره فحلَّ عقود المذاهب
ما رمى طرفه بسهم هوى غير صائب
بتُّ من حبه على مثل شوك العقارب(١

وللخالدي يشبّب بفتى مترهب في الدير الاعلى بالموصل:

قر بدير الموصل الاعلى انا عبده وهواه لي مولى
لثم الصليب فقلت من حسدله قُبَل الحبيب فمي بها اولى(٢

ولاحد الشعراء في فتى راهب في دير اللجّ بالحيرة جمع بين حسن الوجه والصوت «اذا رجّع الانجيل اهتزّ مائدًا»:

سقى الله دير اللج غيثًا فانه على بعده دير اليَّ حبيب
قريب الى قلبي بعيد محله وكم من بعيد الدار وهو قريب
يهيّج ذكراه غزال يحلّه اغنّ سخور المقلتين ربيب
اذا رجّع الانجيل واهتز مائدًا تذكر محزون الفؤاد غريب
وهاج لقلبي عند ترجيع صوته بلابل اسقام به ووجيب(٣

وللجلال ابن الصفّار المارديني يتغزل بشماس وهو مما تُغُنِّي به:

برق بدا ام ثغرك المنعوت ام لؤلؤ قد ضمّه ياقوت
يا للنصارى برقوا شماسكم قبل الضلال فانه طاغوت
ما قام اقنوم الجمال بوجهه الا وفي ناسوته اللاهوت
يشتاقه قلب اليه طائر صبّ وطرف حائر مبهوت
فأحسن فان الحسن وصف زائل واصنع جميلًا فالجمال يفوت
واستبقِ من اهل الغرام ولا تجُرْ فيتلفوك دماهم ويموتوا(٤

ونظيره قول ابن نباتة المصري في شماس وهو غاية في الظرف والاجادة:

لله قلبي كنيسة لاحظته فكأنما لاحظت ظبي كناس
يجلو محاسنه ويتلو صحفه ناهيك من شمس ومن شماس

---

١) ديوانه، ص ٥٢-٥٣

٢) معجم البلدان ٢: ٦٤٤

٣) معجم ما استعجم للبكري، ص ٣٦٦

٤) جزء من مسالك الابصار للعمري في المتنين والمتنبات، باريس رقم ٥٨٧٠، ص ١٧٢

عجبًا له في دين عيسى كيف قد · اضحى يعارض حكمه بقياس
هذاك احيا الناس من موت وذا · في الحب قد وافى بموت الناس
من اجل مبسمه الشهيّ تفتحت · في كفه ابدًا شفاه الكاس
وكأنما مدّ اليدين صليبه · يبغي عناق قوامه المياس(١

وفي هذا البيت الاخير تخيُّل غريب. ولابن خطيب داريا في دير مار الياس في داريا قصيدة اولها:

هات اسقني الصهباء يا مؤنسي · قد فاح نشر الورد والنرجس

يقول فيها:

هذا هو العيش ومن لي به · في دير مار آلياس او بطرس
في فتية شبه بدور الدجى · اذا بدَوا في اسود الملبس
رهبان دير طيب اخلاقهم · اصفى من الراح لمستأنس
اكثر الفاظهم أشرَبْ فلا · اسمعْ: لا أفتِ ولا أدرُسِ
مـا لي وللفقه واصحابه · يا نفس منهم آن ان تيأسي(٢

ولابي علي حسن الغزي في رهبان دير المصلّبة بظاهر القدس:

ومزمّرين اذا تَلَوا انجيلهم · وتعطفوا فحمائم وغصون
ترعوا القلانس والمسوح فزُحزحت · منهن عن غرر الشموس دجون
وسعوا بكاسات المدام وما دروا · ان الكؤوس الدائرات جنون(٣

وللسريّ الرفّاء يتشوق الى دير يوسف بالموصل ويصف راهباته. وكنى عن الراهبات بالدُمى النواطق:

كم دمنة خرساء فيه ودُمية · فَضَلت عليها باللسان الناطق
ومهفهف لو كنت املك امره · بدّلت مُسحق مسوحه بقراطق
كم قد رمقت به المنى فغشيتها · ما بين مرموق الجمال ورامق
ومذلّل اخذ الصبا بيمينه · فجرى به جري الجموح السابق
ورقدت من غزلانه وذنابه · ما بين مسروق الجمال وسارق(٤

ومن الغزليات في الجواري الراهبات قول ابرهيم بن القاسم الكاتب المعروف بالرقيق القيرواني يذكر إدمانه السكر في دير القُصَير بمصر ومنادمته لاحدى

---

١) ديوانه، طبعة مصر سنة ١٩٠٥، ص ٢٧٠
٢) الرابع من المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي لابن تغري بردي، الخزانة التيمورية، ص ٦١٧–٦١٨ ٣) مسالك الابصار ص ٣٤٠
٤) ديوان السريّ الرفّاء في مجموع رقم ٣٠٩٨، في خزانة باريس، ص ١٤٧

رواهيه:

وكم بتّ في دير القصير مواصلاً   تماري بليلي لا أُفيق من السكر
تبادرني بالراح بكر عزيزة   اذا هتف الناقوس في غرّة الفجر
مسيحية خوطيّة كلما انثنت   تشكّت اذى الزنار من رقة الخصر(١

وقد اشرنا قبلاً الى تلطف بعض المترددين على القلالي والاديار في مخادعة الملاح فيها، والتظاهر بالتقرب من النصرانية، والتزّي بزيّ اهلها ومخالطتهم لهم في الكنائس لتأليف قلوبهم واستدامة معاشرتهم. ومن الابيات المروية في ذلك قول عبدالله بن العباس بن الفضل في شادن من الرهبان في دير قوطا بالبَرَدان من نواحي بغداد على شاطئ دجلة:

يا دير قوطا، لقد هيّجت لي طربا   ازاح عن قلبي الاحزان والكُرَبا
كم ليلة فيك واصلت السرور بها   لما وصلت به الادوار والنُخَبا
في عصبة بذلوا في القصف ما ملكوا   وانفقوا في التصابي العرض والنشبا
وشادنٍ ما رأت عيني له شبهاً   في الناس لا عجماً منهم ولا عربا
اذا بدا مقبلاً ناديت وا طربا   وان مضى مُعرضاً ناديت وا حربا
اقمت بالدير حتى صار لي وطنا   من اجلهِ ولبستُ المسح والصُلُبا
وصار شماسه لي صاحباً واخاً   وصار قسّيسه لي والدًا وابا (٢

ومن ابيات الكندي المنبجي حين مرّ بدير مار ماعوث:

ولقد سلكت مع النصارى كل ما   سلكوه غير القول بالثالوث
بتناول القربان، والتكفير للصلبان، والتسبيح بالطيبوث
ورجوت عفو الله متكلاً على   خير الانام نبيّه المبعوث (٣

ولما زار ابن جناح دير قزمان في ضواحي حلب قال: رأيت فيه شماساً امرد كالبدر بقدّ يقد القلوب. فانفذت اليه ليحضر عندنا فامتنع. فآنسته وجعلت لا افارقه. وتناولت معه القربان ودخلت معه كل مدخل الى ان أَنِس بي وعاشرني وقلبي معه وقلت:

يا دير قزمان كم لي فيك من وطر   قضيته فسقاك الله هتانا
اقتُ فيه أُسقّى من مشعشعة   تنفي بسورتها همًا واحزانا
منادمًا قسّه دهرًا وربّتا   نادمت قسًا وشماسًا ورهبانا

---

١) ارشاد الاريب لياقوت ١: ٢٦١   ٢) معجم البلدان ٢: ٦٨١
٣) معجم البلدان ٢: ٧٠١

وفيهم قمر في ليل مدرعة   على قضيب حوى حسناً واحسانا
فلم ازل انا اسعى في تبسّطهِ   وقد اخذت اقربي منه قربانا
حتى استكان الى وصلي ونادمني   وكان من بعد ذا منه الذي كانا (١

ومن ادلّ الشواهد على ان كل هذا الذي زعموه من لبس الصلبان وتناول القربان لم يكن الا على سبيل العبث والهزل ومن باب التنادر والتظرف في الشعر قول الوليد بن يزيد في زيارتهِ ديرِ بُوَنَّى بدمشق:

قاخذنا قربانهم ثم كفّر   نا لصلبان ديرهم فكفرنا (٢

ومن تُرى يصدّق ان الخليفة نفسه يمازح الرهبان هذا المزاح ويرتكب مثل هذا الكفر في الشرع؟ وهل هذا القول ونظائره الا خُدعة من خُدَع الشعر وأُغنيَّة من اغانيّ الغزل والسكر؟

وبمثل هذا النقد والانكار يجب ان يتلقى المؤرخ اخبار منادمة بعض فتيان الرهبان والراهبات لزوّار الاديار وشُرّاب المدام. فان هذه المجاملة منهم لم تكن في الحقيقة الا خوفاً وتقيَّة ومصانعة ومداراة. ومما يثبت ذلك ان الراهب كان لا يكاد يتخلّص من سخرة مجلس الشراب والغناء حتى يبادر توًّا الى موقفه بين صفوف المصلّين «النعّارين في السحر» كما سمَّاهم ابن المعتز. حكى الشاعر المتصمي في كتاب الديرة للسمياطي قال: «نزلت دير القائم الاعلى فرأيت فيه راهباً امرد لم ترَ عيني احسن منه وجهاً وقدًّا. فسألته ان يجلس لاشرب على وجهه. فجعل يسقيني ليلتي. فلما قارب طلوع الفجر نهض الى صلاته فسمعته يقرأ مزاميره بصوت ما رأيت قط اشجى ولا اطيب منه. فعلق قلبي به. وتهيأ مسيره في غد فقلت فيه:

رأيت البدر مجلوًّا   بدير القائم الاقصى
له عينان لحظهما   مُطاع الامر لا يُعصى

الى بقية ما هنالك من ابيات أمَّحت سطورها. وختمها بقوله:

فقام ينصّ مزمارًا   بالحان له نصاً (٣

---

١) بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم Add. 23354 f°138[b]

٢) الخزانة الشرقية (المشرق ٣٦ [١٩٣٨] ٤٨)

٣) جزء من بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم، خزانة بريتيش موزيوم Add. 23354 f° 170

الامور والاعاجيب

في الحانات وملحقات الاديار

لاحدهم في حانة دير اللجّ ابيات قال فيها يصف مجلسه مع اصحابه . وما اهاجته فيهم سورة الخمار من ثورة الشهوات :

حتى اذا المحمر مالت بنا جرت امور واعاجيب(١

ومن اقبح هذه « الامور والاعاجيب » تهتك بعض الاضياف والخلعاء في عشرة غلمانهم وفتيانهم بجوار بيوت الصلاة ، والخلوة بهم في القلالي والحانات ، بحيث اصبحت احياناً ملتقى العشاق ومأوى الفسّاق . وهو ما لا يكاد يصدق لاول وهلة ، لولا تضافر الاخبار والاشعار على اثباته ونفي كل ريب فيه. ومن اصرح ما يشهد بذلك ما حكاه بعضهم قال : « حصلت يوماً بعكبرا في بعض الحانات فشربت اياماً بها . . . وقرأت يوماً على جدار البيت الذي كنا فيه :

ايها المغرمون بالحانات والمفتنون في هوى الفتيات
ومتى استنفدت كروم بَزَوْغى فأَوانا(٢ اواله ، فالفرات
قد شربنا المدام في دير ماري «وأصبنا» البنين قبل البنات(٣

والطف تصريحاً منه قول ابي نواس في دير نهراذان ، وهو من اصدق الاوصاف لما كان يجري في ملحقات الاديار ، وفي بعض الاعياد النصرانية :

بدير خراذان لي مجلس وملعب وسط بساتينه
رحتُ اليه ، ومعي قينة ، تزوره يوم سعانينه
بكل طلاّب الهوى فاتك قد آثر الدنيا على دينه
حتى توافينا الى مجلس تضحك الوان رياحينه
والنرجس النضّ لدى ورده والورد قد حُفَّ بنسرينه
وجيءَ بالدنّ على مرفع وخاتم العلج على طينه

---

١) مسالك الابصار ، ص ٣٢٦

٢) بَزوغى كانت من قرى بغداد قرب المزرفة ؛ بينها وبين بغداد نحو فرسخين. واوانا بليدة كانت كثيرة البساتين والشجر نزهة من نواحي دجيل بغداد (معجم البلدان ١ : ٢٠٦ و ٢٦٥)

٣) معجم البلدان ١ : ٢٦٥

وطاف بالكأس لنا شادن يديه مسّ الكف من لينه
يكاد من إشراق خدَّيه ان يختطف الابصار من دونه
فلم يزل يسقي، ونلهو به، ونأخذ القصف بآيينه
حتى غدا السكران من سكره كالميت في بعض احايينه (١

وشتّان بين هُجر البيت الاخير من ابيات دير مار ماري المتقدمة وادب لفظ ابي نواس «نلهو به ونأخذ القصف بآيينه» اي برسومه وقوانينه وشروطه.

ويستفاد من حسن اوصاف ابي نواس ان مجالس اللهو والقصف والشرب والغناء، ومعاشرة القيان والغلمان، كانت تكون غالباً في الرياض والبساتين بين الازهار والرياحين. وانما كانت تُنسب خاصة الى الاديار حتى يُظَنّ انها جرت وراء جدرانها وفي جوار بِيَعها ومعابدها، لاضافة الحانات والحدائق اليها واشتهارها باسمها.

وقد اشرنا قبلاً الى بعض هذه المجالس المنكرة في كلامنا على دور الضيافة (ص٣٤٦–٣٤٩) ومن اظهر الشواهد على ما كان يتفق هنالك احياناً من تهتك وخلاعة، ابيات رواها ياقوت لكلاب بن حمزة، المعروف بابي الهندام (او الهيذام)، من اهل حرّان، في باعوث دير زكّى. وهي اصدق مثال لما كان يجري قديماً في الاعياد والمواسم النصرانية. وفي ظل القلالي والحانات من تعرض المسلمين للمواكب. واختلاط الرجال منهم بالنساء. وفتنتهم للفتيات والفتيان. واستباحتهم للذمم والاعراض:

بين النواقيس والتقديس آونةً وتارة بين عيدان ونايات

قال ابو الهندام في دير زكّى. ولا يخلو وصفه من الظرف. نجتزئ منه بما هو ادلّ على المراد من تعريف المهرجانات النصرانية:

سقياً لحرّان انه بلدٌ اصبح للّهو، وهو مِضمارُ
في يوم باعوثهم، وقد نشروا الصلبان، والمسلمون نُظّارُ
فمن مهاة هناك مقبلة ومن غزال عليه زنّار
ازحم هذا، وتلك ترحمني، وفي الحشا والفؤاد إسعار
فارقتني هناك شاطرة منهم جبا في الذراع أسوار
تقول لي، والدلال يصرعها أنحن، يا مسلمون، كفّار

١) ديوانه، خزانة الفاتيكان رقم ٤٥٦، ص١٦٦

فقلت يا غايتي ويا أملي بل انتِ المؤمنون اخيار
اطلب منها بذاك تقربةً والشعراء الخبثاء فُجّار
فرقّ لي قلبها ومِلتُ بها في دير زكّي[١] ونعمت الدار
تقول لي عند وقت منصرفي انك من بعدها لغدّار
حللتَ عقد الامان منك لنا فما لعقد لديك إمرار
فقلت قد كان ذاك عن خطاءٍ لا قَوَدٌ عندنا ولا ثار
استغفر الله ، ثم أسأله المتوب ، فلي بالذنوب اقرار[٢]

وانكى ما في هذه الابيات ، مع ما اتصفت به من طلاوة وحلاوة ، قوله : « ومِلتُ بها في دير زكّي » كأن حانات الاديار في ذلك العهد كانت دورًا للريبة والفجور . يطمئن فيها الناصب . ويأوي اليها الفاسق . ولذلك مدحها بقوله « ونعمتِ الدار » . ويظهر ان الحال كانت على مثل ذلك ايضاً في مصر ، كما يُستدلّ مما رواه العمري بلفظه وسجعه قال :

« حُكي ان السراج الورّاق وابا الحسين الجزّار خرجا في عهد صباهما . والشباب اعقد حُباهما . يريدان النزهة . فوجدا غلاماً زامرًا يُتمنّى منه اللقاء . ويجتمع فيه الغصن والورقاء . يتلفت بصفحة القمر المنير ويُطرب كأنما زمره مما أوتي آل داود من المزامير . فلقتاه اليهما لأمر . وظنّا انه سيُلينه لهما الخمر . فأتيا به دير شعران . وصعدا اليه فوجدا راهباً يصدع حبه الفؤاد . ويطلع قمره ولا شيء احسن منه في ذلك السواد . فزاد سرورهما بحصول الزامر والراهب . وايقنا ببلوغ المآرب . فلما حميت فيهما سورة الحميا . وظن كل منهما انه قد حصل له فراشه وتهيا . فطن الزامر والراهب لمرادهما فتركاهما ومضيا قبل التمام . وتركاهما وكل منهما يشكو ضجيعاً لا ينام

فقال السراج :

في فختنا لم يقع الطائر لا راهب الدير ولا الزامر

---

١) ضبط في التاج دير زكى بالياء المشدّدة اي زكيّ كعلي (٣ : ٢٢١) وهو خطأ صريح . والصواب زكّى بالالف المقصورة كما ورد في هذا البيت . وممن وهم بضبطه ايضاً البكري في معجم ما استعجم (ص٣٧٧) قال هو بفتح الزاي وتشديد الكاف واسكان الياء ولم ينتبه الى وروده بالالف المقصورة في بعض الابيات التي استشهد بها .

٢) ارشاد الاديب ٦ : ٢٠٩-٢١٠

فقال ابو الحسين الجزار:

فسدنا ليس له اول وغنا ليس له آخر

فقال السراج:

فالقلب في اثرهما هائم

فقال الجزار:

والقلب من اجلها حائر (١

ومما يزيد في مغزى هذه الحكاية طموح الشاعرين الى الراهب ايضاً «وقد ظن كل منهما انه قد حصل له فراشه وتيها». ومن تأمل بعين الروية والاعتبار هذه الشواهد باسرها يدرك بملء الاسف والاكتئاب علة قول ابن عاصم المصري في دير طموية من قرى مصر:

منازل كنت مفتوناً بها يَفِعاً وكنَّ قدماً مواخيري وحاناتي (٢

وقد يعجب القارئ من رضى الرهبان بمثل هذه السمعة الشائنة وإغضائهم عما كان يحدث ضمن قلاليهم احياناً. وفي ظل مواطن النسك والتبتل من اصناف المخازي والمنكرات. ولكن اذا تذكر حرج موقف الاديار في دار الاسلام، وتعرضها في كل حين لاخطار الضيافة. ووقوعها تحت سلطة الولاة والمتغلبين. وتمثل ذلّة رؤسائها بين يدي ارباب الدولة واعوان الحكم والظلم. يدرك عجز الرهبان عن صيانة حاناتهم وافنيتهم من الامتهان والابتذال. وصيانة بعض فتيان شمامستهم من شبهات الريب والشكوك. ومن افصح الادلة وانصع البراهين على هذه الحال الشنيعة حادثة جرت في الرها ودير زكّى بالرقة. توشك ان لا تصدّق لولا ثقة رواتها. وهي منقولة عن كتاب الديارات لابي الفرج الاصبهاني. وروايتها اصح متناً من رواية ارشاد الاريب لياقوت (٢: ٢٢-٢٦) قال الصنوبري الشاعر المشهور:

« كان بالرها ورّاق يقال له سعد. وكانت دكانه مجلس كل اديب. وكان حسن الادب والتفهم يعمل شعرًا رقيقاً. فما كنا نفارق دكانه انا وابو بكر المعوّج الشامي الشاعر وغيرنا من شعراء الشام وديار مصر. وكان لتاجر بالرها نصراني

١) مسالك الابصار، ص ٣٦٧-٣٦٨

٢) معجم البلدان ٢ : ٦٧٥

ابن اسمه عيسى من احسن الناس وجهاً واحلاهم قدّاً واظرفهم طبعاً ومنطقاً . وكان يجلس الينا ويكتب عنا من اشعارنا . وجميعنا يحبه ويميل اليه وهو يومئذ صبي في الكتاب . فعشقه سعد الكتبي عشقاً مبرحاً . وكان يعمل فيه الاشعار . فمن ذلك قوله وقد جلس عنده في دكانه :

اجعل فؤادي دواةً والمداد دمي ❊ وهاك فابرِ عظامي موضع القلم
وصيّر اللوح وجهي وامحُهُ بيدِ ❊ فان ذلك برءٌ لي من السقم
ترى المعلّم لايدري بمن كلفي ❊ وانت اشهر في الصبيان من علَم

ثم شاع في الرها خبره بعشق الغلام . فلما كبر الصبي احب الترهب وشاور اباه وامه في ذلك والحّ عليهما حتى اجاباه وخرجا به الى دير زكّى بنواحي الرقة . وهو في نهاية الحسن . فابتاعا له قلاية ودفعا الى كبير الدير جملة من المال عنها . فاقام الغلام فيها وضاقت على سعد الوراق الدنيا بما رحبت . واغلق دكانه وهجر اخوانه . ولزم الدير مع الغلام . وهو في خلال ذلك يعمل الاشعار في الغلام . فانكر الرهبان على الغلام كثرة إلمام سعد به ونهوه عنه . وحرموه ان ادخله قلايته وتوعدوه بخروجه من الدير . فاجابهم الى ما سألوه من ذلك . فلما رأى سعد امتناعه عنه شق عليه . وخضع للرهبان ورفق بهم فلم يجيبوه . وقالوا في هذا اثم وعار ونخاف السلطان . فكان اذا وافى الدير اغلقوا في وجهه الباب ومنعوه من دخوله . ولم يدعوا الغلام يكلمه . فاشتد وجده به وزاد عشقه الى ان صار الى الجنون . فخرق ثيابه وانصرف الى داره وضرب جميع ما فيها بالنار وكذلك دكانه . ولزم صحراء الدير وهو عريان يهيم ويعمل الاشعار .

قال ابو بكر الصنوبري : ثم عبرت يوماً انا والمعوّج الشامي من بستان بتنا فيه . فرأيناه جالساً في ظل الدير وهو عريان وقد طال شعره وتغيرت حاله . فسلمنا عليه وعذلناه وعنّفناه . فقال دعاني من هذا الوسواس . أتريان ذلك الطائر الذي على هيكل الدير ؟ واومأ بيده الى طائر هناك . فقلنا نعم . فقال انا وحقّكما يا اخويّ اناشده منذ الغداة ان يسقط فاحمّله رسالة الى عيسى . ثم التفت اليّ وقال يا صنوبري أسمعك الواحك . قلت نعم . قال اكتب :

بحقّك ، يا حمامة دير زكّى ، ❊ وبالانجيل عندك والصليبِ
قفي ، وتحملي مني سلاماً ❊ الى قمر على غصن رطيب

عليه مسوحه واضاء فيها　　فكان البدر في حال المغيب
حماه جماعة الرهبان مني　　فقلبي ما يقرّ من الوجيب
وقالوا رابنا إلمام سعدٍ　　ولا والله ما انا بالمُريب
وقولي سعدك المسكين يشكو　　لهيب جوًى احرّ من اللهب
فَصِلْهُ بنظرة لك من بعيد　　اذا ما كنت تمنع من قريب
وان انا متُّ فاكتب حول قبري　　محبٌّ مات من هجر الحبيب
رقيب واحد تنغيص عيش　　فكيف بمن له مائتا رقيب

ثم تركنا وقام يعدو الى باب الدير فوجده مغلقاً فانصرفنا عنه . وما زال كذلك زماناً ثم وُجد في بعض الايام الى جانب الدير ميتاً . وكان امير البلد العباس بن كَيْغَلَغ . فلما اتصل ذلك به وباهل الرها . خرجوا الى الدير وقالوا ما قتله غير الرهبان . فقال ابن كيغلغ لا بد من ضرب رقبة الغلام واحراقه بالنار وتعزير الرهبان بالسياط . وتصلّب في ذلك . فافتدى الرهبان نفوسهم وديرهم بمائة الف درهم . وكان الغلام بعد ذلك اذا دخل الرها لزيارة اهله صاح به الصبيان «يا قاتل سعد الوراق» وشدوا عليه بالحجارة يرجمونه . وزاد عليه الامر في ذلك حتى امتنع من دخول المدينة . ثم انتقل الى دير سمعان وما ادري ما كان منه.»[1]

ولا حاجة الى التنبيه على ما لهذه الحكاية من الخطر والشأن في الدلالة على ما كان عليه القوم في ذلك العهد من اخلاق ومساوئ وبغي وادّعاء . وتحكّم في الديارات . واغرب ما هنالك ارادة امير الرها ضرب رقبة الغلام واحراقه بالنار جزاء تعففه وامتناعه . وتعزير الرهبان بالسياط وهي الطامة الكبرى . ولعل كل ذلك يشفع في نظر المؤرخ لبعض ضَعَفَة الرهبان في إيثار المداراة والمصانعة في الارتزاق . ويقيم لهم العذر في الإغضاء عما كان يجري حولهم ، وعلى رغم منهم ، من الفضائح والقبائح . ومن هذا الخبر الجدير بالعبرة والاستبصار يتضح حرج موقف الديارات وما كانت عرضة له من الاخطار والنكبات . وما كان يحلّ بها من آونة لاخرى من عوادي الظلم والاستبداد لعجزها عن التصوّن والاتقاء . بين شعب قاهر . وفي دولة سلطان جائر .

١) الجزء الثالث عشر من عيون التواريخ للكتبي ، من مخطوطات الظاهرية بدمشق رقم ٤٩ ، في حوادث سنة ٤٢٦ للهجرة (٥/١٠٣٤ م)

التردّد الى الكنائس والاديار

للنظر الى غلمان النصارى ونسائهم

بين شواهد النحو بيت منسوب للاخطل ، وليس في ديوانه ، قيل فيه :

ان من يدخل الكنيسة يومًا   يلقَ فيها جآذرًا وظباءَ[١]

وهذا البيت كان قائد كل متفرج في الآحاد والاعياد . وكل متطرّح في القلالي والديارات . وقد اشتهر مدرك بن علي الشيباني بملازمته دير الروم في بغداد في خلق كانوا يقصدونه لاستجلاء مَن فيه من الوجوه الحسان . وله فيه :

وجوه بدير الروم قد سلبت عقلي   فاصبحت في بؤس شديد من الخبل
فلم ترَ عيني منظرًا مثل حسنهم   ولم ترَ عينٌ مستهامًا جم مثلي
فكم من غزال قد سبى العقل لحظه   ومن ظبية رامت بالحاظها قتلي[٢]

وفي دير الروم لقي عمرَو بن يوحنا النسطوري وعلق به وجُنّ . ونظم فيه قصيدته المشهورة :

من عاشق ناءٍ ، هواه داني   ناطق دمع صامت اللسان[٣]

وهي التي مشى فيها على سَنَن ابي نواس في قصيدته الآتية الذكر وجمع فيها كل ما حفظه من اقسام النصارى بمسيحهم وروح قدسهم وقداديسهم وتديسيهم وحواريهم واحبارهم ومعابدهم . وامثال هذه القصائد جديرة بالدرس لما ورد فيها من ذكر أولياء النساطرة وخصائصهم ومصطلحاتهم واحتفالاتهم . وعلى شاكلتها قصيدة بكر بن خارجة في عشير بن البراء الصراف من نصارى الحيرة . وله فيه شعر كثير يذكر فيه مواسم النصارى وقرابينهم واديارهم ومشاهير بيعتهم . ومنه قوله :

بمارت مريم ، وبدير زكّي ،   ومر توما ، ودير الجاثليق
وبالانجيل يتلوه شيوخ   من القسّان في البيت العتيق

١) خزانة الادب للبغدادي ، ص ٤١٢
٢) معجم البلدان ٢ : ٦٦٢ ، ومسالك الابصار ، ص ٢٧٢
٣) ارشاد الاريب ٧ : ١٥٢-١٥٨

وبالقربان ، والصلبان ، الّا رثيت لقلبي الدنف المشوق
أجرني ، متُّ قبلك ، من همومٍ وأرشدني الى وجه الطريق
فقد ضاقت عليَّ وجوه امري وانتَ المستجار من المضيق (١

ولا شك ان المجلّي في هذه الحلبة هو ابو نواس في قصيدته التي نظمها في عبد يشوع بن مار سرجس واولها :

بمعمودية الدير العتيق ، بمُطرُبْليطها ، بالجاثليق

وهو القائل في غيرهِ من غلمان النصارى هذه الابيات وهي جديرة ان تُوضع عليها اليد :

لَبِقٌ بديع الحسن لو كلّمتَه لنبذت دينك كله من حالق
واللهِ ، لولا انني متخوّف ان أُبتلى بامام جور فاسق ،
لتبعته في دينه ودخلته ببصيرة فيه دخول الوامق
اني لاعلم ان ربي لم يكن ليخصّه الّا لدين صادق(٢

وللشعراء في الاسلام قصائد ومقطعات شتى على هذا النمط . تغزلوا فيها بفتيان النصارى وفتياتهم . يحسن جدًا ان تُجمع وتطبع لفائدتها في تاريخ النصرانية في الاسلام . نختار منها شاهدين فقط نوردهما مثالًا عليها . الاول قول ابي محمد الحسن بن علي بن وكيع التنّيسي في غلام قد شد في وسطه الزنار ، وفيه نظر الى ابيات ابي نواس المتقدمة :

فَضَلَ الغصون لانها من غرسنا ، عند التأمل ، وهو غرس الباري
قد غيَّب الزنارَ دقّةُ خصره حتى ظننّاه بلا زنار
متنصّر قويت على إسلامنا بالحسن منه حجةُ الكفار
قالوا : أيصنع مثل هذا ربكم ويرى فساد صنيعه بالنار (٣

والثاني من نظم احد شعراء المغاربة يخاطب به راهبة في دير ريفة من صعيد مصر :

عساك ، بحق عيساك ، مريحة قلبيَ الشاكي
فان الحسن قد ولّا ك إحياني واهلاكي
واوامني بصلبانٍ ورهبانٍ ونسّاك

١) معجم ما استعجم ، ص ٣٧١
٢) ديوانه . باريس ١٨٣١ ، ص ٨٢ و ١٢٥
٣) يتيمة الثعالبي ، طبعة مصر ١ : ٢٢٥-٢٢٦

ولم آتِ الكنائس عن هوًى فيهنَّ ، لولاك (١

زكان الشاعر الثرواني كثير الإلمام بالبيع والاديار ، معروفاً فيها بالعبث والهزل والاستهتار . حكى عنه جاره في الكوفة حمزة بن ابي سلامة قال : « باكرني في يوم شعانين وقال لي اعزم بنا اليوم على الشرب في دير الحريق لانه يوم سيقصده فيه خلق . ولي به صديق من رهبانه ظريف مليح القلاية جيد الشراب. فهلمَّ نتزه اعيننا في ما نراه من الجواري والغلمان . ثم نعدل الى قلاية صديقنا فنشرب على سطحها المشرف على الرياض . فخرجنا فرأينا من النساء والوصائف والولدان في الحلي والحُلل ما لم ارَ مثله قط . فلم يزل يعبث ويتعرض ويقبّل ويعانق. وكان معروفاً بذلك فما احد ينكر عليه فعله الى بعد الظهر . ثم اتينا قلاية صديقه الراهب فلقيه بالاكرام والترحاب . فدخلنا قلايته . فما رأينا انظف من آلاتها ولا انضر من بستانها. ثم قدم لنا شيئاً من طعامه فأصبنا منه. ثم صعدنا سطحها وجلسنا ننظر الى منظر يبهر حسناً وجمالاً . من رياض وغدران وطير يصفر. ونحن نشرب حتى ثملنا وبتنا هناك . وغدونا الى الكوفة . فقلت له تترك هذا اليوم مع حسنه عاطلاً من حلي شعرك ؟ فقال لا والله . ولقد عملت في في ليلتي هذه الابيات :

خرجنا في شعانين النصارى ... وشيَّعنا صليب الجاثليق
فلم ارَ منظرًا احلى بعيني ... من المتفيّنات على الطريق
حملن الخوص والزيتون حتى ... بلغنَ به الى دير الحريق
اكلناهنّ باللحظات عشقاً ... واضمرنا لهنّ على الفسوق (٢

وهذا البيت الاخير لسان حال كل شاهد من شهود المسلمين في المواسم النصرانية .

ومن احسن اوصاف مواكب النصارى في الاعياد. وبروز النساء فيها بالحلي والحلل بعضهن « على العَجَل ». وبعضهن على الشهاري والبغلات المصرية والحُمُر. ما حكاه الحسن بن يعقوب قال:

« صرت الى الرها فبتُّ بها . وخرجت قبل عيد الصليب بيوم . فاذا لدينا

١) مسالك الابصار ، ص ٢٨٦

٢) مسالك الابصار ، ص ٢١٥–٢١٦

وجوه حسان من نصرانيات خرجن لعيدهنّ . عليهن جيد الثياب وفاخر الجوهر. واذا روائح المسك والعنبر قد طُيّب الهوا. منها. وقد فُرش لهنّ على العجل. وهو يُجرّ بهنّ . وأخريات على الشهاري الخراسانية والبغلات المصرية والحُمُر الفرَه . ومشاة . وفي خلال ذلك صبيان ما رأيت احسن منهم وجوهاً وقدوداً وثياباً . فتأملت منظرًا لم ارَ احسن منه قط. واذا هم يطلبون دير زكى ليعيدوا فيه.»[1]

وممن كان لا يفارق الكنائس في الاعياد، شغفاً بفتاة نصرانية رآها وعلق بها، عبدالله حفيد الفضل بن الربيع، وزير الرشيد والامين. «خرج في عيد مار سرجيس فظفر بها في بستان الى جانب البيعة. وكان قبل ذلك يراسلها ويعرفها حبه لها. فلا تقدر على مواصلته. ولا على لقائه الا على الطريق. فلما ظفر بها التوت عليه وأبت بعض الإبا. . ثم ظهرت له وجلست معه واكلوا وشربوا. واقام معها ومع نسوة كنّ معها اسبوعاً ثم انصرفت في يوم خميس. فقال عبدالله بن العباس في ذلك وغنّى فيه :

ربّ صهباء من شراب المجوس قهوة بابلية خندريس
قد تليتها بنـاي وعود قبل ضرب الشماس بالناقوس
وغزال مكحل ذي دلال ساحر الطرف بابلي عروس
قـد خلونا بطيبه نجتليه يوم سبت الى صباح الخميس
بـين آس وبين ورد جنيّ وسط دير القديس ما سرجيس
يتثنى بحـسن جيـد غزال ذي دلال منقّش آبنوس
كم لثمت الصليب في الجيد منه كهلال مكلّل بشموس»[2]

وبالجملة ان تعرض المسلمين للنظر الى ولدان النصارى وحورهم في الكنائس كان في كل المدن الاسلامية . ولذلك قال ابو العلا. في لزومياته :

فلا تتعرض في طريقك ناظرًا نساء النصارى غاديات الى الكُنُس

---

١) مسالك الابصار ، ص ٢٧٣

٢) الاغاني ١٧ : ١٢٦ ، ومعجم البلدان ٢ : ٦٩٣

الشرب والغناء

على نغم الرهبان وضرب النواقيس

كان المترددون الى الاديار للتنزه والقصف وشرب الصبوح والغبوق ، ومعهم المغنون والقيان ، كثيراً ما يسمعون بالقرب منهم صلوات الرهبان والحانهم فربما حركت هذه الالحان من طربهم واستخفّت اصواتها اشواقهم . فتبادلوا الكؤوس على ايقاعها ، او تحدّوا في غنائهم ضرب النواقيس . والى هذه العادة اشار الثرواني بقوله :

اشرب على قرع النواقيسِ في دير اشمونى بتفليسِ
لا تخفِ شرب الكاس ، والليل في حدّ نعيم لا ولا بوس
الّا على قرع النواقيس او صوت قسّان وتشميس
وهكذا فاشرب ، والّا فكن مجاوراً بعض النواويسِ[1]

ومن الديارات التي اشتهرت بهذا الطرب دير مارت مريم بين الخورنق والسدير . وهو دير قديم من بناء المنذر مشرف على النجف . قال ابو الفرج الاصبهاني : « كان فيه قس يقال له يحيى . وله ابن يقال له يوشع . يألفه الفتيان الظرفاء . ويشربون عنده على قراءة النصارى وضرب النواقيس . »[2] ونظيره عمر نصر في سرّ من رأى . وهو من متنزهات آل المنذر قديماً بالحيرة . قال الحسين بن الضحاك ، وكان كثيراً ما يألفه : اصطبحت انا واخوان لي في عمر سرّ من رأى . ومعنا ابو الفضل رذاذ . وزنام الزامر . فقرأ الراهب سفراً من اسفارهم حتى طلع الفجر . وكان شجيّ الصوت جداً . ورجّع من نغمته ترجيعاً لم اسمع مثله . فتغنّيه رذاذ وزنام . فغنى ذلك عليه . وزمر هذا . فجاء له معنى اذهل العقول . وضجّ الرهبان بالتقديس . قال الحسين فقلت :

يا عمر نصر ، لقد هيّجت ساكنة هاجت بلابل صبّ بعد إقصار
لله هاتفة هبّت مرجّعة زبور داود طوراً بعد اطوار
لما حكاها زنام في تفنّنها فافتنّ يتبع مزموراً بزمار

---

١) معجم البلدان ٢ : ٦٤٣

٢) معجم ما استعجم ، ص ٢٧١؟

عجّت اساقفها في بيت مذبحها وعجّ رهبانها في عرصة الدار (١

وفي قوله « لله هاتفة » تصريح بان مرجع الزبور كان راهبة خلافاً لقوله السابق انه راهب . ولعل الاثنان اشتركا في التلحين . وكان لبعض الراهبات الشماسات بل لبعض الجواري والفتيات ، في الكنيستين النسطورية واليعقوبية ، حظ في خدمة الهياكل والقراءات . ولما زار الخليفة المتوكل على الله دير باب الفراديس بدمشق ودخل البيعة مرّت به شمانين ابنة قس الدير. وعليها شارة من شارات خدمة الكنيسة . وبيدها مبخرة تبخّر بها[٢] . ومن الشواهد ايضاً قول جحظة البرمكي يصف راهبات دير العَلْث :

وظباء يتلون سفرا من الا نجيل باكرن مجرة قربانا
لابسات من المسوح ثياباً جعل الله تحتها اغصانا (٣

وقد اعتاد الشعراء ان يطلقوا لفظة « التلاوة او القراءة » على كل تلحين للنصارى. وان يصفوا كل صلاة لهم بانها تلاوة من الانجيل او ترجيع من الزبور. فلا شكّ ان ظباء دير العَلْث كنّ يردّدن بعض الانغام البيعية حين سمعهن جحظة البرمكي . او على الاقل كنّ يشاركنّ فيها . ولكل التقديرين شأنه في تاريخ غابر اخبار الفرق المسيحية في العراق.

ومن اظرف ما يروى في معنى الالحان النصرانية ان الغريض المغني المشهور كان يستحسن بعضاً منها ويجيد تحدّيها وصياغة اصوات على مثالها. وهو ما حدَّث به حماد بن اسحق عن ابيه قال:«سمع الغريض بعض اصوات رهبان بالليل في ديرهم فاستحسنها . فقال له بعض من معه يا ابا يزيد صُغ على مثال هذا الصوت لحناً فصاغ مثله في لحنه :

يا أُمّ بكر حبك البادي لا تصرميني انني غادِ

فما سُمع باحسن منه.»[٤]

وعندنا ان هذه الانغام التي اصغى اليها الغريض وشاقته كانت على الارجح

---

١) معجم ما استعجم ، ص ٣٦٩-٣٧٠
٢) الدر الملتقط من كل بحر وسفط ، خزانة بريتش موزيوم Add. 19408
٣) معجم البلدان ٣ : ٦٨١
٤) الاغاني ٣ : ١٤٦

انغاماً روميَّة. وقد اخذ العرب في بدء غنائهم كثيراً عن الروم. وبقي الغناء الرومي مأثورًا عندهم متداولًا في الحجاز والعراق والشام . حتى بين النساطرة واليعاقبة الارامين . ومما يثبت ذلك ان الاعشى الشاعر المشهور كان يزور اساقفة نجران ويمدحهم ويمدح العاقب والسيد وهما ملكا نجران ويقيم عندهما ما شاء . فكانوا يسقونه الخمر ويسمعونه الغناء الرومي[1] . وكان لجبلة بن الايهم الغساني عشر قيان « خمس منهن يغنين بالعيدان بالروميّة . وخمس يغنين بغناء اهل الحيرة . »[2]

وسنذكر في الفصل الآتي الصوت الذي صاغه المغنون على مثال ضرب النواقيس وسمّوه به .

النواقيس والاجراس

في الاديار والكنائس

قال القلقشندي : « اذا اراد النصارى الصلاة ضربوا بالناقوس . وهو خشبة مستطيلة نحو الذراع يُضرب عليها بخشبة لطيفة فيجتمعون . »[3] فالناقوس غير الجرس . ولكن قد يُطلق عليه لقول لسان العرب : « الناقوس مضراب النصارى الذي يضربونه اوقات الصلاة . »[4] ومثل هذا التعريف يعمّ كل ما يُتخذ للتأذين في الصلاة .

وتسمّى العصا التي يقرع بها الناقوس « الوبيل ». يقال نقس بالوبيل الناقوس نقساً اي ضرب.[5] ونقست النصارى وانتقست اي قرعت الناقوس قال :

كأن اصوات لجّيها اذا اصطفقت اصوات عيدان رهبان اذا انتقسوا [6]

وقد جُمع الناقوس شذوذًا لضرورة الشعر على نواقِس بحذف الياء . ونُقّس على توهّم حذف الالف منه . قال المرقّش الاكبر :

١) الاغاني ٦ : ٧٣

٢) مختار من كتاب اللهو والملاهي تصنيف ابن خرداذبه ، من مخطوطات خزانتي

٣) صبح الاعشى ١٣ : ٢٨٤

٤) لسان العرب ٨ : ١٢٦

٥) تاج العروس ٤ : ٢٦٣

ونسمع ترقاء من البوم حولنا كما ضربت بعد الهدوّ النواقس

وقال الاسود بن يعفر :

وقد سبأت لفتيان ذوي كرم قبل الصباح ولما تقرع النُقُس (١

وورد جمع النواقس غير مرة في شعر ابن عبد ربّه . وقال في ارجوزته التي مدح بها الخليفة عبد الرحمن الناصر مشيرًا الى العدو :

فاقبل العلج لهم مغيثا يوم الخميس مسرعًا حثيثا

بين يديه الرجل والفوارس وحوله الصلبان والنواقس (٢

ومن اوهام الشعراء وكتاب الدواوين ان خشبة الناقوس مقدسة في شرع المسيحيين . وربما قرنوها بخشبة الصليب واقسموا بهما معًا في جملة الأَيمان التي كانوا يستحلفون بها النصارى . ومنه قول البحتري يهجو يعقوب بن الفرج الجهبذ النصراني بحلب :

فان كنتَ ادهنتَ او خنتَ او لهجت بظلميَ في من لهج

فخالفتَ مريم في دينها وفارقت ناموسها المنتهج . . .

وهدّمت بيعة ما سرجس واطفأت نيرانها والسُرُج

واوقدت ناقوسها والصليب تحت عثانك حتى نضج (٣

وسبق البحتريَّ ابو نواس فحلّف بالناقوس وحده في ابيات ، قال فيها مخاطبًا عبد يشوع بن ما سرجس :

بحارث مريم ، ويوم فصح ، وبالقربان ، بالخمر العتيق

وبالصلبان ترفعها رماح تلألأ حين تومض بالبريق

وبالناقوس في البيَع اللواتي تقام بها الصلاة لدى الشروق (٤

وزاد الفضل بن الربيع ، وزير الرشيد ، في السخف حين اراد استحلاف كاتبه عون النسطوري . فانتدب اسحق بن ابرهيم الموصلي المغني المشهور ان يتولى ذلك منه . فقال له في جملة رقاعاته واقذاره : خلعتَ النصرانية وبرئت من المعمودية . وطرحت على المذبح حيضة يهودية . . . والّا فشققت الناقوس وطبخت

١) اساس البلاغة ٢ : ٤٧١

٢) العقد الفريد ٣ : ٣٦٨

٣) ديوانه . خزانة باريس ٣٠٨٦ ، ص ٧٦

٤) ديوانه ، خزانة باريس ٤٨٣١ ، ص ٨٣

به لحم جمل وأكلته يوم الاثنين مدخل الصوم...»[1]

وربما كان الناقوس والوبيل من حديد وهو قليل . وعلى ذكر الوبيل عصا الناقوس نقل الجاحظ ملحة يطيب ايرادها هنا . قال :

« قال الشرقي بن القطامي : خرجت من الموصل وانا اريد الرقة مستخفياً . وانا شاب خفيف الحال . فصحبني من اهل الجزيرة فتى ما رأيت بعده مثله . فذكر انه تغلبي من ولد عمرو بن كلثوم . ومعه مزود وركوة وعصاً . فرأيته لا يفارقها . وطالت ملازمته لها فكدت من الغيظ عليه ارمي بها في بعض الاودية ... فقلت له في شأن عصاه (فعدّد منافعها ومرافقها وأبان فوائدها في اثناء السفر وهي سبعة) ... قال . فلما صرت الى مفرق الطرق واردت مفارقته قال لي : لو عدلت معي فبتّ عندي كنت قد قضيت حق الصحبة . والمنزل قريب . فعدلت معه فادخلني في منزل يتصل ببيعة . قال فما زال يحدثني ويطرفني ويلطفني الليل كله . فلما كان السحر اخذ خشبة ثم اخرج تلك العصا بعينها فقرعها بها . فاذا ناقوس ليس في الدنيا مثله . واذا هو احذق الناس بضربه . فقلت له ويلك أما انت مسلم وانت رجل من العرب من ولد عمرو بن كلثوم . قال بلى . قلت فلِمَ تضرب بالناقوس . قال : « جعلت فداك . ان ابي نصراني وهو صاحب البيعة . وهو شيخ ضعيف فاذا شهدتُه بَرَرتُه بالكفاية » واذا هو شيطان مارد . واذا هو اظرف الناس كلهم واكثرهم أرباً وطلباً . »[2]

وفي هذه النكتة شاهد على انه كان لضرب النواقيس في الاديار والكنائس اساليب وافانين تختلف وتتباين بحسب حذق الناقس وخفة يده بالضرب وكان الغالب فيه الضرب المقطّع المكرّر كصوت وقع حوافر الخيل في عَدْوِ الخَبَب . او كصوت قطر الميزاب . ولذلك سمّى العروضيون بحر الخبب من اوزان العروض « دق الناقوس » عند سكون ثاني الجزء فيه . اي بتسكين عين فَعِلُن . كقوله :

مالي مـال الّا درهم او برذوني ذاك الادهم

ومن الابيات النادرة التي أشير فيها الى احد انواع ضرب الناقوس قول ابن

١) ديوان ابي نواس : الجزء الثالث ، رواية الاصبهاني ، باريس ١٨٣٠ ، ص٧٦

٢) البيان والتبيين ، المطبعة العلمية ، ٢ : ٦١-٦٢

الزنبقي المصري من ابيات في دير القُصَير بظاهر مصر:

وضربَ الناقوس فيه راهب ضربًا على رَيْثٍ، وضربًا بعجل(١

وقد تقدم من شهادة ابي الفرج الاصبهاني ان الفتيان الظرفاء كانوا يشربون على قراءة النصارى وضرب النواقيس ولذلك قال الثرواني:

اشرب على قرع النواقيس او صوت قسّانٍ وتشميسِ

وهو ما يدلّ على مقدرة الناقسين وإجادتهم ايقاع الانغام بالوبيل. ولا يخفى ما في ذلك من التفنّن والإطراب. ولذلك لم يأبَ احد متقدمي المغنّين معبد من تقليد اصوات الناقوس في هذا الشعر:

سلي دار ليلى هل تجيب فتنطق وأنّى تردُّ القول بيداءُ سَمْلَقُ
وأنى تردّ القول دار، كأنها، لطول بقاها والتقادم، مُهْرَقُ

ودُعي هذا اللحن لهذا السبب باسم «النواقيس» لتحدّيه ايقاعها. ويظهر انه كان غريباً عجيباً، حتى اشتهى الخلفاء انفسهم سماعه. قال ابرهيم بن خالد المعيطي: «دخلت على المهدي وقد وُصف له غنائي وعلمي به. وقال لي تغني النواقيس؟ قلت نعم والصليبِ يا امير المؤمنين. فصرفني».(٢

ومن لطائف الشعر الذي قيل في مليح راهب يجيد ضرب الناقوس:

رأيته يضرب الناقوس قلت له من علّم البدر ضربًا بالنواقيسِ
وقلت للنفس: اي الضرب يؤلمك ضرب النواقيس ام ضرب النوى؟ قيسي(٣

وللاقباط تقاليد في اصل اتخاذ النواقيس لا بأس ان ننقلها من حاشيتين قرأناهما في هامش كتاب «مجموع من القوانين البيعية» بآخر الباب الخامس منه: «في القداس والشماس» قال:

الاولى: استنّ الآباء ضرب الناقوس من قول الله في التوراة (تكوين): ايام فرحكم واعيادكم وشهور كم اهتفوا بالقرون على ذبائحكم الكاملة. ويكون لكم ذكرًا امام الله ربكم.

الثانية: ذكر المؤرخون ان اول من ابتدأ بضرب الناقوس ابونا نوح عليه السلام عندما عمر السفينة. فانه كان يضرب بالناقوس عندما يستدعي الصنّاع للعمل فيها كل يوم. ويشهد ايضًا كتاب اسفار الملوك بان اليشع تلميذ اليا ضرب الناقوس لما سار بنو اسرائيل لمحاربة

١) الديارات للشابشتي، ص ١٢٧

٢) تاريخ الطبري، طبعة اوربة، ص ٥٤١-٥٤٢ T. S.

٣) روض الآداب لاحمد بن الحجازي، خزانة بريتش موزيوم Or. 3843 f°, 127vo

المواييين ولم يجدوا ماء في الطريق يشربون. وتنبأ لهم بان الوادي يجلّ ماء. وان الله يسلّم المواييين في ايديهم. [١]

وفي الشعر الجاهلي والاسلامي اشارات عديدة الى قرع النواقيس بالاسحار عند قيام الرهبان للصلاة. وقد أرِق جرير من ضربها وقت صياح الدجاج حيث قال وهو بدمشق:

لما تذكرت بالديرَين أرّقني   صوت الدجاج وضرب بالنواقيس [٢]

وكان الرهبان يقرعونها في الصباح والمساء عند اوقات الصلاة. وهو ما اشار اليه ابو نواس في ابياته التي وصف بها رهبان دير حنّة وقال:

يكرّرون نواقيساً مرجَّعة   على الزبور بإمساء وإصباح [٣]

وقد يوافق ضربها عند الفجر صوت المؤذّن. ولذلك دعا ابن المعتز صوتها «تأذيناً» حيث قال:

يا نديمَيَّ، سقّياني، فقد لا   حَ صباح وأذّن الناقوس [٤]

ومثله لعلي بن اسماعيل من شعراء خريدة القصر:

قم قبل تأذين النواقيس   واجلُ علينا بنت قيس [٥]

وقد انكر الفقهاء قرع النواقيس قبل اوقات التأذين. وعُدَّ ذلك في جملة ذنوب خالد القسري في الكوفة. قالوا: «كانت أمه نصرانية ولم يأمرها بالاسلام. وبنى لها بالكوفة بيعة وساق اليها الاقساء. واقام الناقوس يضرب قبل اذان المسلمين عند صلاتها. فتكلم الناس في هذا وانكروا عليه.»[٦] ولهذا لما كان احد الاديار يُهدم او يُغتصب في الاسلام كان يقال فيه بلسان الفرح والاستبشار:

بعد الاناجيل آيات القران به   تُتلى، وقد نسخ الناقوسَ تكبيرُ [٦]

وربما كان قرع الناقوس داعياً لاغتصاب الدير. وهو ما حدث لدير عبّاد في ميافارقين. «قيل كان العميد قوام الدين ابو علي البلخي امير ديار بكر نائماً

---

١) خزانة بريتيش موزيوم Or. 1331, f° 44 ro
٢) معجم البلدان ٤: ١٠٠٦
٣) ديوانه، خزانة الفاتيكان ٤٨٣٩، ص ١٩٠–١٩١
٤) ديوان المعاني لابي هلال العسكري، بريتيش موزيوم Add. 23443, f° 89b
٥) خريدة القصر للعماد الكاتب، باريس ٣٣٢٨، ص ١٢٥
٦) شفاء القلوب في مناقب بني ايوب، بريتيش موزيوم Or. 7311, f° 78b

بالقصر فسمع وقت السحر صوت ناقوس فقال ما هذا. فقيل له ان هذا دير عباد على الجبل. فلما اصبح واجتمع الناس قال يُضرَب في بلاد المسلمين وعلى رؤوسهم الناقوس؟ فإذن نحن في القسطنطينية. فقالوا يا مولانا هذا عُمل مرة مسجدًا وعاد النصارى ردّوه ديرًا. فامر بقلع المذبح وعمل المحراب واتخذه مسجدًا وسُمّي مسجد الفتح. واجتمع النصارى وخدموا بمقدار خمسين الف دينار. فلم يقبل منهم وبقي على حاله الى الآن مسجدًا.»[١]

وقريبٌ من ذلك ما جرى في ٨ رمضان سنة ٧٨٠ (٢٩ دسمبر ١٣٧٨ م) لكنيسة ابي النمرس من الجيزة بمصر. «بات احد الفقراء الزيالعة بناحيتها. فسمع لنواقيس كنيستها صوتًا عاليًا. فوقف للسلطان الاشرف شعبان فلم ينل غرضًا منه. فتوجه الى الحجاز وعاد بعد مدة طويلة وبيده اوراق تتضمن انه تشفع برسول الله عند قبره في هدم كنيسة ابي النمرس. ووقف بها الى الامير الكبير برقوق الاتابك. فرسم بهدمها وعملها مسجدًا. وبذل النصارى في تركها ذهبًا له صورة فلم يقبل.»[٢]

وهذه الحادثة جديرة بالتنويه في تاريخ الكنائس في الاسلام.

ولما افتتح العرب بلاد الروم البيزنطيين كان في جملة الشروط التي اشترطوها على النصارى في العهود المعطاة لهم « ان لا يُحدثوا كنيسة ولا بيعة ولا يظهروا ناقوسًا ولا باعوثًا ولا صليبًا » كما جاء في العهد الذي كتبه عياض بن غنم لاهل الرقة[٣]. وروى القاضي ابو يوسف «ان ابا عبيدة بن الجراح اشترط على اهل الشام ان لا يضربوا نواقيسهم قبل اذان المسلمين. ولا في اوقات اذانهم.»[٤]

وفي بعض المراسيم السلطانية، في دولة المماليك بمصر، نهي عن ضرب الناقوس بغير تقييد. كمرسوم الملك الناصر سنة ٧٠٠[٥] (١٣٠٠/١ م) او امر بترك ضرب

١) مجلد من تاريخ ميافارقين لابن الازرق الفارقي، بريتيش موزيوم Or. 5803, f° 150a

٢) السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي ، رقم ١٧٢٧ باريس ، ص ١١٥ ؛ وذيل ابن قاضي شهبة ، ١٥٩٨، ص ٢٥٢

٣) فتوح البلدان للبلاذري ، طبعة اوروبة ، ص ١٧٢

٤) كتاب الخراج ، ص ١٦٥

٥) العبر لابن خلدون ٥ :٤١٦

الناقوس مطلقاً كرسوم الملك الصالح سنة ٧٥٤[١] (١٣٥٣ م) او تحريم اظهار الناقوس كرسوم نائب المملكة الطرابلسية الى نائب حصن الاكراد سنة ٧٦٥[٢] (١٣٦٣/٤ م) والمراد في الحقيقة ان يكون ضرب الناقوس ضرباً خفيفاً في جوف الكنائس فقط، لا تحريمه على كل حال.

ومن البديهي ان يكون الناقوس مبغَّضاً الى الفقهاء والعلماء. لكونه من اظهر شعائر النصرانية. واكثرها جلبةً وانتشاراً. فكانوا يكرهون صوته ويكرهون كل ما يقرب منه او يضاهيه. ولذلك قال السيوطي في كلامه على آداب الوليمة وجواز السماع فيها «اما ما كان فيه الصنج والجلاجل فينبغي ان يكون مكروهاً لشبهه بالناقوس.»[٣] (كذا)

سهم اصاب، وراميه بذي سَلَمٍ، مَن بالعراق! لقد ابعدتِ مرماكِ!

وفي عكس ذلك كان مُجّان الشعراء والمغرمون بالصهباء وطروق الحانات يتلذذون جداً بسماع النواقيس في الاسحار لاعتبارهم «تأذينها» دعوة وتنبيهاً لهم لاغتنام شرب الصبوح وتجديد مجالس اللهو والطرب. وقد مرَّ بنا بعض اشعارهم في هذا المعنى. وللامير تميم بن المعز لدين الله:

قد دعانا الى الصبا الناقوسُ حين حنَّت الى الصباح النفوسُ[٤]

وللحسين بن الضحاك:

ونَدمان صدق لا ترى بين جهرهِ وبين الذي تخفي سريرته فرقا
تنبَّه للناقوس، اول نقرهِ ولم تبقِ لـذات الكرام له عاقا[٥]

وله ايضاً:

حاجتي للصبوح نقر النوا قيس ونجوى حمامة وحمام
فاصبحاني، قبل الصباح، مداماً قهوة مرّة بماء غمام[٦]

---

١) تاريخ البدر للعيني، بريتيش موزيوم Add. 22360, f° 59[ro]

٢) صبح الاعشى ١٣ : ٢٢

٣) نزهة المتأمل ومرشد المتأهل لجلال الدين السيوطي، بريتيش موزيوم Or. 4640, f° 140[vo]

٤) مجلد من قطب السرور في اوصاف الخمور للرقيق النديم، بريتيش موزيوم Or. 3628 f° 216[vo]

٥) مجلد من قطب السرور في اوصاف الخمور للرقيق النديم، لوندرة Or. 3628, f° 476

٦) مجلد من قطب السرور في اوصاف الخمور للرقيق النديم، لوندرة Or. 3628, f° 232

ولا يُعلم بالضبط في اي وقت اُتخذت الاجراس في لبنان بدلًا من النواقيس قبل ان تشمل ايضاً سائر بلاد الشام ومصر. وفي تاريخ الدويهي انهم «في سنة ١١١٢ قرعوا نواقيس النحاس عوض الخشب في لبنان.»[١] ولكنه لم يذكر على اي سند عوَّل لاثبات هذه الرواية وتعيين السنة. وكلاهما موضع نظر. ولعلَّه قدِّر ان دخول الاجراس في لبنان كان لا محالة بعد دخول الصليبيين طرابلس واستقرارهم في بعض انحاء الجبل. واذا صح ان الاجراس قُرعت حقيقة في عهد الصليبيين في زمن لا سبيل الى ضبطه بغير ثبت ولا برهان. فلا ريب انها لم تكن الا في الكرسي البطريركي وحده في وادي قنوبين. ولنا على ذلك شهادات السيّاح الذين زاروا الجبل وكتبوا عنه. واقدم ما وقفنا عليه منها في رحلة لاحدهم سنة ١٥٣٣–١٥٣٤ جاء فيها ان بين كل الطوائف الشرقية لم يكن غير الموارنة في لبنان منفردين باتخاذ الاجراس في الكنائس[٢] يعني كنائس قنوبين. وكان فيها جرسان فقط شاهدهما السائح الفرنسي كارلياي دي بينون سنة ١٥٧٩ وقال انه لم يَرَ غيرهما في تركية[٣]. وفي سنة ١٦٠٥ حكى زائر آخر ان الاجراس كانت ايضاً في بعض اديار اخرى. قال وهي نادرة في هذا الجبل[٤]. ونصَّ الراهب اوجين روجه سنة ١٦٣٤ على ان الاجراس كانت اربعة في الكرسي البطريركي بقنوبين، ودير مار انطونيوس، ودير مار اليشع. قال واما سائر الكنائس والاديار فخالية من الاجراس وليس فيها الا خشبات معلقة بحبال وتقرع بالعصي[٥]. ولما زار قنوبين الكاهن الانكليزي مُوندرل في ٩ ايار (مايو) سنة ١٦٩٧ قال ما تعريبه: «في قنوبين جرسان صغيران في الحائط لدعوة الرهبان للصلوات. وهي مزية امتاز بها هذا المكان لا يتمتع بها غيره في الجبل وذلك لبعد الاتراك عن سماعها.»[٦]

١) تاريخه، المطبعة الكاثوليكية، ص ١٠٣

٢) G. Affagart, *Relation de Terre Sainte*. Paris, 1920, p. 88

٣) Carlier de Pinon, *Relation de voyage en Orient*. Paris, 1920, p. 294

٤) Henri de Beauvau, *Relation Journalière du voyage du Levant*. Nancy, 1619, p. 98

٥) F. Eugène Roger, *La Terre Sainte*, Paris, 1664, p.491

٦) H. Maundrell, *Voyage d'Alep à Jérusalem*. Paris, 1706, p.242

واكبر حجة على ان الاجراس بقيت دائماً قليلة محدودة في لبنان ، وان النواقيس لم تنقطع حتى الى اواخر القرن السابع عشر ، قول الاب فِرْسو ، رئيس الآباء اليسوعيين في سورية ، في كتاب له ارسله الى فرنسة بتاريخ ٩ نيسان (ابريل) سنة ١٦٦٩: « اذا بلغت الموضع الذي في نيتي القيام برسالتي فيه ففي النهار نفسه يُنادى للاجتماع بقرع الناقوس الخشب . وهو قبيح الصوت ولكنه يُسمع من بعد فرسخين في ما جاور من الجبال .»[1]

وكانت الحال كذلك في الديار المصرية . ولم تكن الاجراس الا في الاديرة النائية في القفار والجبال البعيدة عن العمران حيث لا يسكن المسلمون . كدير مار انطونيوس للاقباط في جبل العربة في الصعيد . وقد زاره سنة ١٦٧٣ الاب ڤانسلب الدومنيكي وحكى انه رأى في كنيسة القديسين بطرس وبولس فيه جرساً صغيراً يُقرَع لايذان الرهبان بالصلوات وبعض الاشغال . قال « وهو الجرس الفرد في كل القطر المصري .»[2]

ومما يجب ان ينبَّه عليه هنا ان عادة ضرب النواقيس الخشب كانت شاملة ايضاً بلاد الروم شائعة في القسطنطينية قبل استيلاء اللاتين عليها . قال احد سيَّاح الروس انطونيوس مطران نوفغورود في كتاب « الحاج » (سنة ١٢٠٠ م) :

« لا توجد اجراس في كنيسة اجيا صوفيا . ولكن هناك مضراب يُقرع باليد في السحر . ولا يقرع للقداديس ولا لصلوات المساء . خلافاً لبقية الكنائس فان نواقيسها تُدق للقداديس وصلوات المساء . وقد اتخذوا هذا المضراب باشارة الملاك . واما اللاتين فانهم يقرعون الاجراس .»[3]

ويقال ان عادة الاجراس دخلت القسطنطينية على يد الصليبيين . وفي سنة ١٢٠٤ شادوا القبة وازالوا من ظاهرها مسحتها القديمة .[4]

---

1) F. Besson, *La Syrie et la Terre Sainte au XVII siècle*. Paris, 1862, p. 448

2) P. Vansleb, *Nouvelle Relation en forme de Journal d'un voyage fait en Egypte en 1672-1673*. Paris, 1677, p. 293-313

3) M^me B. de Khitrovo, *Itinéraires Russes en Orient*. Genève, 1881, p. 97

4) J. Ebersolt, *Constantinople Byzantine et les voyageurs du Levant*. p. 154

النذور والاستشفاء

في الديارات

قلّ ان يكون دير في العراق، والجزيرة، ومصر، والشام، لم تُحمل اليه النذور والهبات، لوجود بعض الصور فيه والايقونات المشهورة بالاشفية والكرامات واجتراح المعجزات او لمكان بعض الشهداء، او القديسين في مزاراته ومعابده. وكان الرهبان يرتفقون بهذه النذور والقرابين للقيام بأودهم وحاجات ديارهم، وتأدية خراجهم وضرائبهم. وربما طاف جماعة منهم في طلبها وجمعها كما كان يجري قبلًا في دير صيدنايا مثلًا.

ومن الديارات التي كان لها سمعة طائرة في كثرة هذه الهبات والصدقات دير برصوما قرب ملطية. وكان يُنادى له بطلب نذره في نواحي الشام، والجزيرة، وديار بكر، وبلاد الروم. ومما يجدر بالتنبيه عليه ان بعض هذه النذور كانت تأتيه من المسلمين انفسهم، كما لا يزال يُشاهد مثل ذلك احيانًا في ديار مصر. قال ياقوت: «وفيه رهبان كثيرة يؤدّون الى ملك الروم وللمسلمين من نذوره عشرة آلاف دينار على ما بلغني. حدّثني العفيف مرجّى الواسطي التاجر قال: اجتزت به قاصدًا الى بلاد الروم. فلما قربت منه أُخبرت بفضله وكثرة ما يُنذَر له. وان الذين ينذرون له قلّ ما يخالف مطلوبهم. وان برصوما فيه احد الحواريين. فألقى الله على لساني ان قلت ان هذا القماش الذي معي مشتراه بخمسة آلاف درهم. فان بعته بسبعة آلاف درهم فلبرصوما من خالص مالي خمسون درهمًا. فدخلت ملطية وبعته بسبعة آلاف درهم سواء. فعجبت ولما رجعت سلمت الى رهبانه خمسين درهمًا.»[1]

وقريب منه دير السيدة في صيدنايا بجوار دمشق. ذكر العمري انه كان «له مغلات واسعة وتأتيه نذور وافرة».[2] ولا تزال هذه المغلات والنذور مطمح اطماع الرؤساء، والوكلاء:

---

١) معجم البلدان ٢: ٦٤٦–٦٤٧

٢) مسالك الابصار، ص٣٥٦

ثم اطاف به سِباع جُوَّع   ما لا يُذاد فانه يُتقسَّم

ومنها دير مار توما على جبل عالٍ في ضاحية ميافارقين « تُنذر له النذور وتُحمل اليه من كل موضع ».[1] ودير كفتون ببلاد طرابلس وكان له « صيت جائل. وسمعة مذكورة. والنصارى تقصده وتحمل اليه النذورة.»[2] والديارات السبعة في الوجه البحري بمصر. كان « سكانها في غاية من قشف العيش وشظف القوت. ويحمل النصارى اليهم جلائل النذور والقرابين.»[3]

ومن الديارات المشهورة بالاستشفاء:

١ دير الجبّ في شرقي الموصل بينها وبين إربل. « يقصده الناس لاجل الصرع فيبرأ منه بذلك كثير.»[4]

٢ الدير الاعلى بالموصل. « وتحت الدير عين كبيرة تصبّ الى دجلة. ولها وقت من السنة يقصدها الناس فيستحمّون منها. ويذكرون انها تبرئ من الجرب والحكة. وتنفع المقعدين والزمنى.»[5]

٣ دير هزقل بالشام يُستشفى به من الجنون. قال دعبل حين هجا ابا عبّاد كاتب المأمون:

فكأنه من دير هزقل مُفلت   حَنِق يجر سلاسل الاقياد

ويقال له ايضاً دير حزقيال. ولا ريب ان هزقل تحريف له. وربما حُبس به بعض العشاق على تقدير ان العشق ضرب من الجنون. قال ابو الفرج الاصبهاني: « حدّث شريح الخزاعي قال: اجتزت بدير حزقيال فبينما انا ادور به اذ بسطرين مكتوبين على اسطوانة منه فقرأته فاذا هو:

رُبَّ ليلٍ امدّ من نَفَس الما   شق طولاً، قطعته بانتحاب
ونعيم كوصل من كنت اهوى   قد تبدّلته. ببؤس العتاب

---

١) معجم البلدان ٢: ٦٤٧

٢) مسالك الابصار، ص ٢٢٥

٣) مسالك الابصار، ص ٢٧٤

٤) معجم البلدان ٢: ٦٥١

٥) الديارات للشابشتي، ص ٧٥، وفي المتن « المقعدين » وهو تصحيف

نسبوني الى الجنون ليخفوا ما بقلبي من صبوة واكتئاب
ليت بي ما ادَّعوه من فقد عقلي فهو خير من طول هذا العذاب

وتحته مكتوب: هويت فمُنعت وشُرِّدت وطُردت. وفُرِّق بيني وبين الوطن. وحُجبت عن الإلف والسكن. وحُبست في هذا الدير ظلماً وعدواناً. وصُفِّدت في الحديد زماناً.

واني، على ما نابني وأصابني، لذو مرّة باقٍ على الحدثان
فان تُعقب الايام اظفر بحاجتي، وان ابقى مرمياً بي الرَّجَوان
فكم ميّت مثلي بغيظ وحسرة صبور بما تأتي به المَلَوان
هو الحب افنى كل خلق بجوره قديماً، ويفنى بعدي الثقلان

قال فدعوت برقعة وكتبت ذلك اجمع. وسألت عن صاحب القصة. فقالوا رجل هوي ابنة عمه. فحبسه عمه في هذا الدير. وعزم على حمله الى السلطان خوفاً ان تفتضح ابنة عمه. فمات عمه. فورثه هو وابنته. فجاء اهله واخرجوا الفتى من الدير وزوّجوه ابنة عمه.»[1]

وللمجانين دير حزقيال نِكات واخبار وردت في كتب الادب والديارات.

٤ دير مياس في ضواحي حمص. قيل كان فيه عظام بعض الشهداء. تُزار طلباً للعافية. «وكان البُطين الشاعر قد مرض. فجاؤوا به اليه يستشفي فيه. فقيل ان أهله غفلوا عنه فبال قدام قبر الشاهد[2]. واتفق ان مات عقيب ذلك. فشاع بين اهل حمص ان الشاهد قتله. وقصدوا الدير ليهدموه وقالوا نصراني يقتل مسلماً؟ لا نرضى او تسلموا لنا عظام الشاهد حتى نحرقها. فرشا النصارى امير حمص حتى دفع عنهم العامة.»[3]

٥ دير يونس في الجانب الشرقي من الموصل وتحته عين تعرف بعين يونس. كان الناس يقصدونها للاغتسال منها والاستشفاء. ولذلك قال فيها ابو شاس:

يا دير يونس، جادت صوبك الدِّيَمُ حتى تُرى ناضراً بالنور تبتسم
لم يشفِ في تاجر ماءٌ على ظمأٍ كما شفى حرَّ قلبي ماؤك الشَّبِم

١) معجم البلدان ٢: ٦٥٤–٦٥٥
٢) الشاهد هنا يعني الشهيد
٣) معجم البلدان ٢: ٧٠٢

ولم يحلّك بحزون على سقم الّا تحلّل عنه ذلك السقم (١

٦ دير الكَلْب بنواحي الموصل. فمن عضّه الكلب الكَلِب ويودر بالحمل اليه وعالجه رهبانه برئ . ومن مضت له اربعون يوماً من العضّة لم ينجع فيه علاج. وفيه يقول السفّاح الشاعر:

سقى ورعى الله دير الكَلْب ومن فيه من راهب ذي ادب (٢

٧ دير القيّارة على اربع فراسخ من الموصل. وتحته عين قير. وهي عين تفور بماء حار ويخرج منه القير . ومن كانت به علة أعيت الاطباء يقصده ويقيم به خمسة ايام مستنقعاً في العين المذكورة. فيبرأ من النقرس والتشنج والاورام الجاسية والرياح الغليظة والجراحات[٣].

٨ دير باطا بين الموصل وتكريت. فيه بئر تنفع من البَهَق.[٤]

٩ دير ابا[٥] هور بسرياقوس من اعمال مصر . كان يستشفى فيه من داء الخنازير بعلاج للرهبان ورماد يذرّونه على موضع الوجع.[٦]

---

١) الديارات للشابشتي ، ص ٧٨–٧٩

٢) الديارات للشابشتي ، ص ١٣٣ ؛ ومعجم البلدان ٢ : ٦٩ ؛ ومسالك الابصار ، ص ٢٥٤–٢٥٥

٣) الديارات للشابشتي ، ص ١٣٣ ؛ ومسالك الابصار ، ص ٣٠١ ؛ والاغاني ١٨ : ٣٠

٤) معجم البلدان ٢ : ٦٤٦

٥) ابا مقتطعة من كلمة أمبا بالقبطية او الحبشية بمعنى الاب. واكثر ما تكتب « انبا » بالنون لوقوع الميم ساكنة قبل الباء. وقد تداولتها السنة العامة ولا سيما بمصر وتصرف بها بعض الكتاب والمؤرخين تصرفهم بلفظة الاب احد الاسماء الخمسة لاشتباه الحرفين لفظاً ومعنًى. فقالوا كنيسة بو سرجة . وكنيسة بو بخوم . ودير بو ساويرس . ودير بو شنودة . ودير ابي بيشاي . ودير ابي مقار الكبير . ودير ابي يوسف وهلمّ جرًّا من نظائر اسماء الكنائس والاديار الواردة في خطط المقريزي ومعجم البلدان لياقوت . وقد اخترنا اثبات لفظ الف ابا دائمًا جريًا مع الاصل ورفعًا لكل التباس

٦) الديارات للشابشتي ، ص ١٣٢–١٣٣ ؛ ومسالك الابصار ، ص ٣٦٠

لباس الرهبان والراهبات

اجمع الشعراء على وصف لباس الرهبان والراهبات بالسواد الحالك. ولم نقف على اشارة واحدة الى انهم تدرعوا احياناً الصوف الابيض. ولذلك صحّ للسري الرفّاء تشبيه الليل بالراهب حيث قال من ابيات:

انظر الى الليل كيف تصدعه راية صبح مبيضّة العَذَب
كراهب حنَّ للهوى طرباً فشق جلبابه من الطرب (١

ونظيره لامية بن عبد الصلت المعري:

والليل في شملة ظلمائه كأنه الراهب في البرنس (٢

وللحسين بن الضحّاك في فتى من الرهبان كان يدير حانة عمر نصر بسامراً:

محتَرّ كالغصن في سُلُب مسوّدة كأن دارسها جسم من القار (٣

ومثله لابن خطيب دارياً في رهبان دير مار الياس:

مع فتية شبه بدور الدجى اذا بدَوا في اسود الملبس
رهبان دير طيب اخلاقهم اصفى من الراح لمستأنس (٤

ولعبدالله بن المعتز في دير عبدون من ابيات مشهورة:

يا طالما نبهتني للصبوح به في ظلمة الليل والعصفور لم يَطِر
اصوات رهبان دير في صلاتهم سود المدارع، نعّارين في السَّحَر (٥

وكان تحت هذه السُلُب والمدارع السود، المسوح في الغالب من الشعر الاسود. وقد اشار اليها والى ما فوقها من فاحم الشباب ابن عاصم المصري في ابيات له في دير القصير بظاهر مصر:

وكأنّ الرهبان في الشعر الاسود سود الغربان في الاوكار (٦

١) يتيمة الدهر للثعالبي، طبعة مصر، ٢: ١٢١
٢) معجم البلدان ٢: ٦٩٩
٣) معجم البلدان ٣: ٧٢٥
٤) المنهل الصافي لابن تغري بردي، الخزانة التيمورية، ٤: ٦١٧–٦١٨
٥) ديوانه؛ خزانة باريس ٣٠٨٧، ص ١٠٥
٦) معجم البلدان ٢: ٦٨٦

ولابي نواس يصف راهباً ساقياً في دير الأكيراح:

يسقيكها مدمج المصرين ذو تَمَنُّف اخو مدارع صوف فوق أمساح (١

ومن هذا البيت يستدلّ على ان المسح كان شعار كل راهب بين شيخ وفتى. ولذلك قال السري الرفاء في غلام من دير يوسف في الموصل:

ومهفهف لو كنت املك امره بدّلت مُحق مسوحه بقراطق (٢

وكان للراهبات مسوحهنّ ايضاً. وقد تقدم بيتان لجحظة البرمكي وصف فيهما عذارى دير العلث فقال في الثاني منهما:

لابسات من المسوح ثياباً جعل الله تحتها اغصانا

فالبرانس اذن والمدارع والمسوح هي كل ما نعلمه اليوم من ملابس سكان الاديار قديماً. وكانوا يشدون فوقها الزنار، وهو اهم سمات اهل الذمة في الاسلام. وقد نعت ابن المعتز رهبان دير عبدون بقوله «مزنّرين على الاوساط». وكان اذا اضطُرّ احدهم الى انتحال الاسلام يبادر قبل كل شيء الى قطع زناره. وهو ما فعله ابو العتاهية تقليداً حين اراد تقبيل يدَي عُتبة التي تغزل بها في شعره ومثل لديها في زي راهب اختار الاسلام على يدها.(٣

وقد نقبنا عبثاً في كتب الديارات عن اشارة الى ما كان يتقنع به الرهبان والراهبات مع البرانس، فلم نجد الا ذكر قلانس رهبان دير المصلبة بظاهر القدس في شعر لابي علي حسن الغزي جمع فيه المسح والزنار والقلنسوة فقال:

ومزنّرين، اذا تلوا انجيلهم وتمطنوا، فحمائم وغصون

نزعوا القلانس والمسوح تزحزحت منهنّ عن غُرر الشموس دجون (٤

---

١) ديوانه، خزانة الفاتيكان ٤٥٦ ص ١٠٠

٢) ديوانه، خزانة باريس ٣٠٩٨، ص ١٤٧

٣) تاريخ بغداد للخطيب ٦: ٢٥٤–٢٥٥

٤) مسالك الابصار، ص ٢٤٠

التاج او اكليل الشعر

كان اتخاذ التاج او اكليل الشعر في الرؤوس (la tonsure) معروفاً بين الرهبان في الجاهلية. وفي حديث ابي بكر حين بعث الجند الى الشام انه قال في وصيته لهم « ستجدون اقواماً محوّقة رؤوسهم » ذكر ابن الاثير في تفسيره ان الحوق الكنس. قال: « اراد انهم حلقوا وسط رؤوسهم فشبّه ازالة الشعر منه بالكنس. ويجوز ان يكون من الحوق. وهو الإطار المحيط بالشي. والمستدير حوله ».[1] ولا حاجة الى التنبيه ان التفسير الثاني هو الاقرب والارجح.

ولا يبعد ان يكون الرهبان الشرقيون قد سبقوا اخوانهم في الغرب الى اتخاذ التاج او اكليل الشعر. وقد ورد ذكره في بيت لابن المعتز وصف به رهبان دير عبدون بقوله:

مزنّرين على الاوساط، قد جعلوا على الرؤوس اكاليلاً من الشعر [2]

وللسريّ الرفّاء يذكر رهبان دير يوسف في الموصل:

من كل اهيف تاجه من شعره فكأنما هو شارق في غاسق [3]

والى مثل هذه العادة اشار ابو نواس يصف رهبان دير حنة:

تاتي بهم كل مخفوّ مفارقه من الدهان عليه سُحق امساح [4]

ولم تكن هذه العادة مختصّة بالرهبان الكهنة فقط، بل كان الشمامسة انفسهم يتخذونها ايضاً، عندما ينقطعون لخدمة الكنائس. ولذلك عرّف ابن سيده الشماس بأنه « من رؤوس النصارى يحلق وسط رأسه ويلازم البيعة ».[5] والى مثل هؤلاء الرهبان والشمامسة المتوّجين اشار مُدرك الشيباني حين استحلف

---

١) النهاية ١: ٢٧١-٢٧٢

٢) ديوانه، خزانة باريس ٣٠٨٧، ص ١٠٥

٣) ديوانه، خزانة باريس ٣٠٩٨: ص ١٤٧

٤) ديوانه، خزانة باريس ٤٨٢٩، ص ١٩

٥) المخصّص ١٣: ١٠٠

عمرو بن يوحنا النسطوري في جملة الاقسام النصرانية التي سردها في قصيدته المشهورة فقال:

بحق قوم حلقوا الرؤوسا وعالجوا طول الحياة البوسا
وقرعوا في البيعة الناقوسا مشمعلين ، يعبدون عيسى (١

ومن اغرب ما جاء في الاساطير القديمة في تفسير هذه العادة ما رواه وهب ابن منبّه في كلامه على حنانيا الرسول حين شفى عيني بولس بدمشق. قال:

« كان بولس قد اخذ ابن اخيه وكان قد آمن بالمسيح. فحلق وسط رأسه ونادى عليه ورجمه حتى مات. فمن ثم اخذ النصارى حلق وسط رؤوسهم للتأسي بذلك فيما كان عوقب بـه . وانه كالتواضع لا كالعيب لمن آمن بالمسيح عليه السلام. »(٢

وكانت هذه العادة في اوائل القرن السادس عشر متّبعة عند الارمن كما يؤخذ من شهادة سائح فرنسي سنة ١٥٣٧ مرَّ بالقدس وقال في جملة كلامه على فِرَق النصارى فيها:

« كهنة الارمن يتزوجون كسائر كهنة الفرق الاخرى... وفي شعور رؤوسهم اكاليل مدوَّرة عريضة . ومع ذلك لا يقصّون اطراف جممهم ولا لحاهم ».(٣

وقد اهمل اليوم رهبان الشرق هذه العادة في جملة ما اهملوه من رسوم الرهبانية قديماً.

---

١) ارشاد الاريب لياقوت ٧: ١٥٦

٢) تهذيب ابن عساكر ٥: ١٢-١٣

٣) G. Affagart, *Relation de Terre Sainte*. Paris 1902, p. 86

وصف الرهبان

بالعبادة، والتقوى، والعلم، والحكمة

من وقف على ما تقدم من الفصول والاوصاف يوشك ان يعتقد ان الديارات اصبحت في الاسلام كما قال دعبل بن علي:

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات (١

واذا اعتبر القارئ ما كان يجري في حاناتها بين الخلعاء والمتطرّبين من «الامور والاعاجيب» يدرك مغزى قول كشاجم فيها:

منازل كانت لي بهنّ مآرب وكنّ مواخيري ومنترهاتي (٢

ولكن هذه التهمة الشائنة التي ألصقها بخلوات الرهبان والنساك بعض الاضياف والشعراء، المتطرّحين في دورها وافنيتها، هي اوهى من ان تتناول كل الاديار والصوامع. وفيها القوّامون الصوّامون «النعّارون في السحر»، كما تقدم من لفظ ابن المعتز. وقد انتصر غير واحد من شعراء الاسلام لهؤلاء القسّيسين والرهبان الذين اثنى عليهم القرآن. ووصفوهم بالتقشف والزهد والانقطاع للصلاة والعبادة. واطرأوا علمهم وآدابهم وفلسفتهم وحفظهم للنحو والشعر والطب والالحان. مع خفة ابدان وارواح. واخلاق اصفى من الراح. وهو ما عدّده الخالدي في ابيات مدح بها رهبان دير مرّان بدمشق، وهو من اديار الملكيّين، قال:

محاسن الدير تسبيحي ومسباحي وخمره في الدجى صبحي ومصباحي
اتت فيه الى ان صار هيكله بيتي، ومفتاحه للحسن مفتاحي
منادماً في قلاليه رهابنة راحت خلائقهم اصفى من الراح
قد عدّلوا ثقل اديان ومعرفة فيهم بخفّة ابدان وارواح
ووشّحوا غرر الآداب فلسفة وحكمة بعلوم ذات ايضاح
في طب بقراط لحن الموصليّ، وفي نحو المبرد اشعار الطرمّاح (٣

ولابي نواس يمدح رهبان دير حنة، ويصف عبادتهم ونحافة اجسامهم من

---

١) ارشاد الاريب ٤: ١٩٤

٢) معجم البلدان ٢: ٦٨٦

٣) يتيمة الدهر، طبعة دمشق، ١: ٥١٢-٥١٣

القنوت والسهر وشظف العيش حتى صاروا كالاشباح:

يا دير حنة من ذات الأكيراح من يصحُ عنك فاني لست بالصاحي
رأيت فيك ظباء لا قرون لها يلعبنَ منا بالباب وارواح
دع التشاغل باللذات ، يا صاحِ ، من العكوف على الريحان والراح
واعدل الى فتية ذابت نفوسهم من العبادة نُحف الجسم ، أملاح
لم يبقَ منهم لرائيهم اذا حصلوا حذارَ ما خوّفوه ، غير اشباح
تلقى بهم كل محنوّ مفارقه من الدهان عليه سُحق امساح
لا يدلفون الى ماء بآنية الّا اغترافاً من الغدران بالراح (١

ثم عاد في ابيات اخرى في مثل وزنها وقافيتها واشار ثانية الى هزالهم ودقة اشباحهم من اطالة الصلاة وترجيع الزبور ودراسة الانجيل في الاسحار والعشيّ، وقال:

دع البساتين من آس وتفاح واعدل،هُديتَ، الى دير الأكيراحِ
اعدل الى نفر دقت شخوصهم من العبادة الا نضو اشباح
يكرّرون نواتياً مرجّعة على الزبور بإمساء وإصباح
تبعد بسمك عن صوت تكرّهه فلست تسمع فيه صوت فلّاح
الا الدراسة للانجيل عن كُتُب ذكر المسيح بإبلاغ وإفصاح (٢

ومن كانت هذه صفته من الضعف والزهد ، والعكوف على السجود والعبادة ، والرغبة عن الدنيا وغرورها ، والانقطاع الى امور الآخرة «حذار ما خوّفوه منها» ، كان اجلّ واعقل من ان ينقاد الى ملابسة الشهوات والادناس ويتعرض لتهمة ليلة الماشوش التي اراد بعض السفهاء والاعداء إلصاقها بهم زورًا وافتئاتاً ، كما سنبيّنه في الفصل الآتي.

١) ديوانه ، خزانة باريس ٤٨٢٩ ، ص ١٩٠–١٩١
٢) ديوانه ، خزانة الفاتيكان ٤٥٦ ، ص ١٠٠

ليلة الماشوش

الماشوش — وجاءت في الشعر بغير الف اي مشوش — لفظة دخيلة عراقية. زعم حمزة الاصفهاني، في تعليقه على بيت لابي نواس، انها «سريانية معربة عن مشوشي. ومعناها الاجتماع».[1] ولم يذكر عمن نقل هذا التفسير. وليس في معاجم اللغة الارامية ما يؤيده. وارتأت مجلة «لغة العرب» البغدادية انها تحريف الحاشوش بالحاء. ويراد بها جمعة الصلبوت او جمعة الآلام عند النصارى[2]. وشتان بين مدلول كل من اللفظتين في العرف والاصطلاح. فيبعد جداً تفريع الاولى من الثانية. وعندها ان القرامطة فيما ذهب اليه بعض الكتبة، هم اول من عُرفوا بهذه البدعة. واشارت الى نشأتهم سنة ٢٦٤ (٨/٨٧٧ م)، فتكون ليلة الماشوش قد أُضيفت اليهم قبل إلصاقها برهبان دير الخُوات بزهاء ١٢٦ سنة هجرية اي في زمان الشابشتي مؤلف كتاب الديارات المتوفى سنة ٣٩٠ (١٠٠٠ م)

والصحيح ان هذه التهمة القبيحة التي تحامل بها بعض خصوم النصرانية على رهبان الاديار كانت شائعة معروفة في بغداد منذ اوائل الخلافة العباسية فهي قد تقدمت نشأة القرامطة. وقد نصَّ عليها ابو نواس في بيت له في بهروز قال فيه:

تقيٌّ في الولادة عن مشوشٍ يرخّصه النصارى للقسوس

قال ابو عبدالله حمزة بن الحسن الاصفهاني في شرحه هذا البيت:

«يزعمون ان للنصارى ليلة يجتمع فيها العُزّاب من القسّان والرهبان «لاستباحة» الابكار. واهل العراق يسمونها ليلة الماشوش. والفرس يسمونها «شب اكلهرزان» (شب كُلَنجذاران اي ليلة المذارى). والنصارى لا تُعرف بذلك.» (١

وهذا القول وحده كافٍ لدحض كل تهمة وفرية وتبرئة الرهبان من هذه المخزية الفظيعة. وهو شاهد صريح باثبات ورودها الى العراق في جملة ما اتى به الفرس من العادات والاخلاق والمساوئ التي ادخلوها في الحضارة العباسية.

١) ديوان ابي نواس، خزانة باريس ٣١٨٣، ٢: ٧٩
٢) مجلة لغة العرب: الجزء الخامس من السنة الثانية ١٩٣٠، ص ٢٨٦

ولم ينفرد حمزة الاصفهاني وحده بالدفاع عن النصارى ونضح هذه المعرّة عنهم ، بل اربى عليه احد مؤلفي الشيعة انفسهم في الانتصار للقسّان والرهبان والثناء على سيرتهم وصيانتهم . فقال، ولا تخفى مكانة قوله في العدل والانصاف :

« واما الماشوش فهو من تخريجات السفهاء عليهم انها ليلة يجتمع فيها رجالهم ونساؤهم لطلب عيسى عليه السلام . ثم يتهارجون كيف اتفق في الظلام . ونعوذ بالله في التحريض على مُوالٍ او مُعادٍ . وخاصة فرقة النصارى . فسيرتهم — على فساد اعتقادهم — هي بلوغ النهاية في الصيانة والامانة والشفقة على الكافة . »[1]

ولا نعلم قولاً للشيعة اجمل في الثناء على آداب النصرانية وفضائلها .

وفي اتفاق اهل السنّة والشيعة على اداء مثل هذه الشهادة غناء وكفاء لقطع قول كل عداء ومراء ، ورحض كل ريبة ووصمة عن سكان الديارات .

ولم ينتهِ الينا من كل روايات مؤلفي كتب الديارات عن الماشوش الا ما حكاه منها الشابشتي فقط . فلا ندري ما نقله منها في هذا المعنى هشام الكلبي ، وابو الفرج الاصبهاني ، والخالديان ، والسريّ الرفّاء ، والسميساطي . وقد اكتفى ياقوت بنسخ ما عند الشابشتي . ولا بأس بايراده بالحرف ليكون هـذا الفصل جامعاً لكل ما قيل في ليلة الماشوش . قال الشابشتي :

« ديرُ الخُوات بعكبرا . وهو دير كبير عامر يسكنه نساء مترهبات متبتلات فيه . . . وعيده الاحد الاول من الصوم يجتمع اليه كل من يقرب منه من النصارى والمسلمين . فيعيّد هؤلاء . ويتنزّه هؤلاء . وفي هذا العيد ليلة الماشوش . وهي ليلة تختلط فيها النساء بالرجال فلا يردّ واحد يده عن شيء . ولا يرد احد احداً عن شيء . . »[2]

وانت ترى من عبارة هذا النصّ ان الشابشتي لم يُشر اقل اشارة الى ان مثل هذا الاجتماع على الفساد كان يكون في دير الخُوات نفسه . ولعل هـذه المفسدة كانت مرويّة عن المتنزهين في حانات الدير ، وبينهم السكارى والشُّأق من المتخلّقين باخلاق الفرس في ليلة شب كُلمذاران .

١) دستور المنجمين ، خزانة باريس ٥٩٦٨ ، ٣٠٢
٢) كتاب الديارات ، ص ٣٨

وجاء بعد الشابشتي الامام البيروني فكتب ما يأتي في ليلة الماشوش في القول على اعياد النصارى النسطورية :

« هي ليلة جمعة زعم الذاكرون لها انهم يطلبون فيها المسيح . وقد اختلفوا فيها . فبعضهم قال انها ليلة الجمعة التاسعة عشرة من صوم ايليا[1] . وبعضهم قال انها الجمعة التي صلب فيها المسيح وهي الصلبوت . وبعضهم قال انها جمعة الشهداء وهي بعد الصلبوت باسبوع . والترجيح للقول الاول بين الثلاثة الاقاويل . »[2]

وليس في هذا القول ايضاً كما ترى اقل إلماع الى اختلاط الرجال بالنساء في الديارات . فمن اين سرّت الى الرهبان والقسوس مثل هذه التهمة الجائرة . لا ريب انها كما قال صاحب دستور المنجمين « من تخريجات السفهاء . »

ومما يشهد بان مفسدة الماشوش هي من اصل فارسي دان بها ارباب البدع والبطالة والخوارج عن السنّة ان القرامطة ، والباطنية ، والاسماعيلية ، والبابكية ، والمازارية ، واشباههم من الفِرَق التي كثر فيها العنصر العجمي ، كانوا من انصار هذه الفاحشة . قال المقريزي :

« لما استقام الامر لقرمط امر الدعاة ان يجمعوا النساء ليلة معروفة . ويختلطن بالرجال و « يتقارين » ولا يتنافرن . فان ذلك من صحة الودّ والألفة بينهم . »[3]

وقال ابن الجوزي :

« بقي من البابكية جماعة يقال انهم يجتمعون كل سنة ليلةً هم ونساؤهم . ثم يُطفئون المصابيح وينتهبون النساء . فمن وقعت في يده امرأة فهي له حلال . ويقولون هذا الاصطياد مباح . لعنهم الله تعالى . »[4]

وقال عبد القادر البغدادي في كلامه على المازارية :

« لهم ليلة يجتمعون فيها على الخمر والزمر . رجالهم ونساؤهم . فاذا طُفئت

---

١) صوم ايليا اوله يوم الاثنين بعد احد وعشرين اسبوعاً من الفطر الكبير . وايامه ثمانية واربعون يوماً . وفطره يوم الاحد . (الآثار الباقية ، ص ٣١١)

٢) الآثار الباقية ، ص ٣١١

٣) اتعاظ الحنفاء ، ص ١٥٥

٤) الثاني من عيون التواريخ للكتبي ، باريس ١٧٣٥ ، ص ١٢٠

السُرُج « استباح » الرجال النساء.. »[١]

ولابن العديم في اخبار سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة (١١٧٦/٧):

« في هذه السنة اظهر اهل جبل السُمَّاق الفسق والفجور. وتسموا بالصُفاة. واختلط النساء والرجال في مجالس الشراب. لا يمتنع احدهم من اخته وابنته. ولبس النساء ثياب الرجال. واعلن بعضهم بان سناناً (مقدم الاسماعيلية) ربُّه. »[٢]

وكانت ليلة الماشوش معروفة ايضاً بين المسلمين في ديار المغرب والاندلس. وللفقيه عمر صاحب الازجال، اديب الاندلس، قصيدة وطَّأ لها بنثر وجعل الجميع مقامة ساسانية سماها « تسريح النصال الى مقاتل الفصال » اولها:

تمالُ نجـدّدها طريقة ساسان   نقصّ عليها ما توالى الجديدان

ومنها:

اتذكر في سفح العقاب مبيتكم   ثمانين شخصاً من اناث وذكران...
واطفأتُ قنديل المكان تعمدًا   واومأتُ فانقضوا كامثال عقبان
وناديتُ في القوم « الوثوب » فاسرعوا   فريق لنسوان وقوم لذكران »[٣]

ويظهر ان لليلة الماشوش آثاراً باقية في العراق وسورية ولبنان بين الفِرَق النصيرية، واليزيدية، والشبك، والكاكائية، والقلم حاجيّة، وغيرهم من ارباب البِدَع. وانها تسمّى اليوم عندهم « ليلة الكفشة ».[٤]

ومن هذه الشواهد كلها يتضح باجلى بيان ان ليلة الماشوش كانت مخزية فارسية مختصة بالخوارج والفرق المبتدعة في الاسلام. وان الرهبان والقسوس والنصارى في الديارات كانوا براء منها متنزّهين عنها باقرار اهل السُنَّة والشيعة انفسهم. فما احق المسيحي اليوم اذا أُنشد بيت ابي نواس المتقدم الذكر، او عُيّر بهذه التهمة العباسية ان يقول: « رمتني بدائها وانسلّت ».

---

١) الفَرق بين الفِرَق، ص ١٦٢

٢) زبدة الحلب في تاريخ حلب، ص ١٩٣

٣) نفح الطيب للمقّري ٣: ٢٢

٤) مجلة لغة العرب ج ٦، سنة ١٩٢٧، ص ٢٦٨؛ و ج ٥ سنة ١٩٣٠، ص ٢٧٠-٢٧٣؛ ومجلة العرفان المجلد ٢٣، ج ٢، ص ٢١٤

خراج الاديار وجزية الرهبان

كان الخراج يُجبى من الديارات وملحقاتها ومزارعها ، كما يجبى من سائر الاملاك والضياع. وربما بلغت الجباية احياناً مبلغاً فاحشاً. «حُكي ان رهبان دير سعيد بالجانب الغربي من الموصل أُلزموا في وقت بجباية. فقاموا بثلاثمائة الف درهم.»[1] وربما خُفِّف عنهم الخراج في احوال خاصة. كما خفف فيما قيل عن رهبان دير صليبا بدمشق حين اعطوا خالد بن الوليد سلَّماً صعد عليه بعض جنده لفتح الباب الشرقي[2]. وكما فعل هرون الرشيد يوم زار دير القائم الاقصى وشرب فيه من يد ديرانية عليها المسوح من حِسان الراهبات وغناه اسحاق الموصلي. فامر ان لا يؤخذ من مزارع الدير خراج واقطعهم اياه. وجعل عليه من الخراج عشرة دراهم تؤدّى في بغداد.[3]

وفي تقاليد بعض الاديار ، وحكايات النساطرة خصوصاً ، اخبار وعهود منحولة للرسول او لعمر بن الخطاب في الوصاة بالرهبان والإعفاء من الخراج ، اذا نقدها المؤرخ البصير يتبين له اليوم من الفاظها وشهودها انها موضوعة مختلقة طمعاً من الرهبان في التخلص من التكاليف والجزى . وقلّ من تنبّه لها من مؤرخي الاسلام. ولعلهم اعانوا احياناً على رواجها وتصحيحها. ومن ذلك ما حكاه الخالدي في كتاب الديارات من دخول عمر بن الخطاب انطاكية قبل الخلافة. وقتلهِ احد بطارقتها وخروجه منها ، وعدوله في طريقه الى احد الاديار قد يكون دير رمّانين في ضواحي حلب. وتنبؤ الراهب له انه بعد ظهور محمد يُخرج الروم من الشام ويملك الارض. ولذلك سأله الراهب بان يكتب له بعد ان اضافه كتاباً في قطعة من أَدَم في ترك خراج الدير والوصاة به[4].

واما جزية الرؤوس والجماجم ، كما كان يقال ، فكانت لا تؤخذ من

١) مسالك الابصار ، ص ٢٦٠
٢) فتوح البلدان للبلاذري ، طبعة اوروبة ، ص ١٢٦
٣) مسالك الابصار ، ص ٢٧٠
٤) الخزانة الشرقية ٣ : ١٠

المترهبين اذا كانوا مساكين يُتصدّق عليهم . واما اذا كانوا ذوي يسار فكانت تُستأدى منهم كسائر الناس[١]. ومع ذلك فقد أُخذت غير مرة من الرهبان الفقراء . ففي خلافة عبد الملك بن مروان كان اخوه عبد العزيز بن مروان امير مصر (٦٨٤—٧٠٥ م) فامر باحصاء الرهبان فأُحصوا . واخذت منهم الجزية عن كل راهب دينار . وهي اول جزية أُخذت من الرهبان.[٢]

وفي سنة ١٠٤ للهجرة (٧٢٢م) كان متولّي الخراج بمصر أُسامة بن زيد التنوخي « فاشتد على النصارى واوقع بهم واخذ اموالهم . ووسم ايدي الرهبان بحلقة حديد فيها اسم الراهب واسم ديره وتاريخه. فكل من وجده بغير وسم قطع يده وكتب الى الاعمال بان من وُجد من النصارى ليس معه منشور ان يؤخذ منه عشرة دنانير . ثم كبس الديارات وقبض على عدة من الرهبان بغير وسم . فضرب اعناق بعضهم وضرب باقيهم حتى ماتوا من الضرب. ثم هُدمت الكنائس. وكسرت الصلبان . ومُحيت التماثيل وكسرت الاصنام باجمعها وكانت كثيرة في سنة اربع ومائة والخليفة يومئذ يزيد بن عبد الملك. فلما قام هشام بن عبد الملك في الخلافة كتب الى مصر ان يُجرى النصارى على عوائدهم وما بايديهم من العهد. فقدم حنظلة بن صفوان اميرًا على مصر في ولايته الثانية فتشدد على النصارى وزاد في الخراج. واحصى الناس والبهائم. وجعل على كل نصراني وسمًا صورة اسد. وتتبعهم فمن وجده بغير وسم قطع يده. »[٣]

وفي امارة احمد بن طولون كان احمد بن المدبّر صاحب خراج مصر. فتتبّع الرهبان واستقضاهم الجزية. وكان ابن طولون كثيرًا ما يغشى دير القصير للملكيين ويأنس براهب منهم . فشكا اليه امر ابن المدبر وقال له انه يطالبنا بجزية رؤوسنا وقد سقطت عن امثالنا على مرّ السنين . فوقّع الى ابن المدبر بخطه . ونكّف عنهم واعفاهم وبلّغهم فوق ما يحبون.[٤]

١) كتاب الخراج للقاضي ابي يوسف ، المطبعة السلفية ، مصر ، ص ١٤٦

٢) الخطط للمقريزي طبعة بولاق ، ص ٤٩٢-٤٩٣

٣) الخطط للمقريزي ، ص ، ٤٩٢—٤٩٣

٤) سيرة ابن طولون للبلوي ؛ دار الكتب الاهلية ، الظاهرية ، دمشق رقم ٣٨٣ ، الورقة ٢٤

وفي سنة ٣١٣ (٩٢٥ م) « قدم الوزير علي بن عيسى بن الجراح الى مصر. فكشف البلد والزم الاساقفة والرهبان وضعفاء النصارى باداء الجزية. فأدوها. ومضى طائفة منهم الى بغداد واستغاثوا بالمقتدر بالله. فكتب الى مصر بان لا يؤخذ من الاساقفة والرهبان والضعفاء جزية. وان يُجروا على العهد الذي بايديهم.»[1]

وكان بعض الخلفاء العباسيين لمعرفتهم بما استقر في نفوس العمال من حب الظلم والعسف والضراوة على إرهاق اهل الذمّة يشددون في اختيار اهل العفة والنزاهة منهم. ويوصونهم بالقسط في جباية الجزية وألّا يأخذوها من النساء والولدان والعجزة والمرضى والفقراء والرهبان. كما جاء في العهد الذي كتبه ابو اسحاق الصابئ من الخليفة الطائع لله الى فخر الدولة بن بويه في جمادى الاولى سنة ٣٦٦ (٩٧٦ م) قال:

« وامره ان يتخيَّر عماله في الاعشار والخراج والضياع والجهبذة والصدقات والجوالي من اهل الظلف والنزاهة... وان يعزوا الى جُباة جماجم اهل الذمة ان يأخذوا منهم الجزية في المحرم من كل سنة. بحسب منازلهم في الاحوال وذات ايديهم في الاموال وعلى الطبقات المطبَّقة فيها. والحدود المحدودة المعهودة لها. وان لا يأخذوها من النساء. ولا ممن لم يبلغ الحلم من الرجال. ولا من ذي سنّ عالية. ولا ذي علة بادية. ولا فقير مُعدم. ولا راهب متبتل.»[2]

وكان بعض الاقباط في دولة المماليك اذا قعدت بهم الحال عن دفع الجالية وهي الجزية المفروضة على رقاب اهل الذمة. يحتالون للتخلص منها بلبس الصوف والانتماء الى بعض الاديار. وفي ايام الملك الظاهر بيبرس البندقداري كثر امثال هؤلاء الرهبان الزور، وعلم السلطان بجلية امرهم، فامر باخذ الجزية من كل راهب لا يكون منقطعاً في الدير او معتزلاً في البرية. او لا تكون له شهود ثقات على صدق رهبانيته. فانتهز الجباة هذه الفرصة لايذاء اكثر الرهبان والتسلط على الشيوخ والعجزة منهم، ولا سيما في جهات الغربية. قال كاتب « سِيَر

١) الخطط للمقريزي، ص ٤٦٤-٤٦٥

٢) صبح الاعشى للقلقشندي ١٠: ٢٧-٢٨

البطاركة الاقباط» بعد ان حكى ما اشرنا اليه في حوادث سنة ٩٩١ للشهداء (١٢٧٤ م)

«ولما جاء السلطان عزّ نصره اجتمع جماعة من رهبان الديارات وجاؤا الى باب السلطان بهدية على قدر حالهم مما يليق بالرهبان. فكتب لهم بمائة وخمسين اردبًا غلّة. وسمع بخبرهم رهبان دير القُصَير الملكية. فاحضروا الأُخر هدية من النسبة فامر لهم بمائة اردب غلة وبقي الرهبان ملازمين باب السلطان مدة. وبعد ذلك خرج الامر بان يُكتب لهم بان يُجرَوا على عادتهم بشرط انهم لا يخفون احدًا ممن تجب عليه الجزية. ولا يرهبنون احدًا الا بعد تنزيله في الديوان. ومن يستحق الرهبنة يدخل فيها لطلب الله تعالى لا لاجل جزية ولا شدة لحقته. واخذوا الكتاب المذكور ومضوا به الى النربية. ولم يقدم شيئًا.»(١)

وظلّ الرهبان على هذا الوجه يغرمون الجالية تارة ويُعفون منها تارة اخرى حتى في عهد الدولة العثمانية ايضاً كما يستفاد من شهادة الحجة الآتية التي وقفنا عليها في خزانة بريتيش موزيوم في مجموع خطي رقم Add. 9965 ومعظمه فصول دينية للبطريرك مكاريوس الزعيم الحلبي. وهي في اول صفحة منه بقلم غير قلم الكتاب. وهذا نصّها بالحرف:

«صورة حجة منع الخراج»

«سبب تحريره هو انه حضر بمجلس الشرع الشريف ومحفل الحكم المنيف بطرابلس الشام المحمية اجلّه الله تعالى. لدى متولّيهِ مولانا وسيدنا الحاكم الشرعي الموقّع خطه الكريم اعلاه. دام فضله وعلاه. بعد ان حضر كل من الراهب ميخايل ولد الياس فرح المطران. والراهب الياس الخوري ولد يونس. وادّعيا على فخر الاقران علي اغا قايمٍ مقام الدستور المكرّم المشير المفخم حضرة مصطفى باشا. المحافظ بطرابلس الشام وايالتها يسّر الله له من الخير ما يشا. مقررين في دعواهم بان المدّعى عليه يطلب منهما ومن امثالهما الرهبان الفقراء الجزية الشرعية عن هذه السنة. وان طائفة الرهبان الخدام بكنيسة طرابلس وبالديورة الكائنة بايالتها من جملة الفقراء النصارى الغير قادرين على الكسب. وليس لهم عادة من قديم الزمان هم ومن تقدمهم من الرهبان باعطاء الجزية وغيرها. وانهم معافون من ذلك بموجب ما بيدهم من العهد نامة النبوية. وسألوا من الحاكم الشرعي سؤاله عن ذلك. فسُئل فاجاب بالاعتراف من انه يطالبهم لكونهم من اهل الذمة. ومن جملة النصارى. وانه مأمور باخذ الجزية منهم بموجب ما بيده من البراءة السلطانية. وابرزها من يده. فقرئت بمسمع من المدعيَين فاذا من مضمونها بان الجزية الشرعية تؤخذ منهم على الاعلى والاوسط والادنى. ما عدا الفقير الذي لا يقدر على الاكتساب فانه ملحق بالزَمِن والمفلوج والمريض. ولم يصدّق المدعى عليه بانهم من الفقراء

(١) سِيَر البطاركة، خزانة باريس ٣٠٢، ص ٢٦٥-٢٦٦

الذين لا قدرة لهم على الكسب . فطلب منهم بيان ذلك بالطريق الشرعي فاحضروا لذلك كل من الحاج حسين بن نعمان . والسيد يوسف بن السيد ابرهيم . ومحمد باسه ابن الفقيه . وموصلي اغا الشوباصي . فشهدوا بان طائفة الرهبان ليس لهم عادة من قديم الزمان باعطاء الجزية . وانهم فقراء وليس لهم كسب ولا حرفة . وانهم يعيشون بصدقات النصارى . شهادة صحيحة شرعية مقبولة منهم شرعاً . فلما شهدوا بذلك . عرّف مولانا الحاكم الشرعي المشار اليه . المدّعى عليه بطلب الجزية بان الفقير الغير القادر على الكسب ، والزَّمِن ، والمريض ، والمفلوج ، ليس عليه جزية . وكذا الراهب الغير مخالط للناس كما في كتب المذهب . ومنعه من التعرض لطائفة الرهبان المرقومين بطلب الجزية تعريفاً ومنعاً شرعياً اوقعهما بالطريق الشرعي . وبالالتماس المرعي طلب المدّعون المزبورون من الحاكم الشرعي المشار اليه بان يسطر لهما ولطائفة الرهبان القاطنين بطرابلس واياليتها صكاً شرعياً تمسكاً بيدهم ونافعاً لهم في المآل عند الاحتياج لدى الاحتجاج . فسُطِّر بالطلب في اوائل شهر شوال المبارك من شهور سنة ١١٠٣» (١٦٩٢ م) .

فهارس الكتاب

الالفاظ المولّدة المشروحة في المتن والحواشي

الاديار والاعمار والقباب والقلالي والكنائس

التي تتغنى بها الشعراء في خمرياتهم واشار اليها المؤرخون في هذا الكتاب

مرتبة على حروف المعجم

الشعراء الذين استشهد بابياتهم وقصائدهم
في هذا الكتاب

المطبوعات والمخطوطات

التي استشهد بها او استند اليها في هذا الكتاب

المطبوعات

الآثار الباقية لابي الريحان البيروني . طبعة ليبسيك
اتعاظ الحنفاء باخبار الائمة والخلفاء للمقريزي . طبعة ليبسيك
احسن التقاسيم للبشاري المقدسي . طبعة ليدن
ارشاد الاريب لياقوت الرومي . مصر . مطبعة هندية
اساس البلاغة للزمخشري . طبعة الدار
الاعلاق النفيسة لابن رسته . ليدن
الاغاني لابي الفرج الاصبهاني . طبعة بولاق
الاغاني لابي الفرج الاصبهاني . طبعة الدار

البيان والتبيين للجاحظ . المطبعة العلمية . مصر

تاج العروس من شرح جواهر القاموس للزبيدي . المطبعة الخيرية . مصر
تاريخ ابن اياس . مصر
تاريخ ابن بطريق . المطبعة الكاثوليكية . بيروت
تاريخ بغداد للخطيب . مصر
تاريخ الدويهي . المطبعة الكاثوليكية . بيروت
تاريخ الرسل والملوك للطبري . ليدن
تاريخ مصر وولاتها لابي عمرو الكندي . المطبعة الكاثوليكية . بيروت
تهذيب ابن عساكر . دمشق .

حديقة الافراح لازالة الاتراح للشرواني . مصر . بولاق
حوادث الدهور مدى الايام والشهور لابن تغري بردي . ليدن

خزانة الادب للبغدادي . مصر
الخزانة الشرقية لحبيب زيّات . الجزء الثاني . المطبعة الكاثوليكية . بيروت
الخطط للمقريزي . مطبعة النيل . مصر
الخطط للمقريزي . طبعة بولاق

ديوان ابن نباتة المصري . مصر

ديوان ابي نواس . مصر
ديوان سبط ابن التعاويذي . طبعة مرجليوث
ديوان عبيد بن الابرص طبعة ليال . بيروت

رحلة ابن بطوطة . مطبعة وادي النيل . مصر
رسالة الغفران لابي العلاء المعري . مصر ، مطبعة هندية

زهر الآداب للحصري . جامش العقد الفريد . مصر

سنن ابي داود . مصر
سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم . مصر

شفاء الغليل للخفاجي . مصر

صبح الاعشى للقلقشندي . مطبعة الدار
صحيح البخاري . طبعة بولاق
صحيح البخاري . المطبعة الحسينية . مصر

العِبَر لابن خلدون . طبعة بولاق
العقد الفريد لابن عبد ربّه . المطبعة الازهرية مصر

فتوح البلدان للبلاذري . ليدن
فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي . مصر

كتاب البخلاء للجاحظ . ليدن
كتاب البلدان لابن الفقيه . ليدن
كتاب التاج للجاحظ . مطبعة الدار
كتاب الخراج للقاضي ابي يوسف . المطبعة السلفية . مصر
كتاب المدخل لابن الحاج . مصر

لباب الآداب لاسامة بن منقذ . مصر
لزوميات ابي العلاء المعري . طبعة بومباي
لسان العرب لابن منظور . بولاق
لغة العرب . بغداد . ج ٦ سنة ١٩٢٧ وج ٥ سنة ١٩٣٠

مختصر كتاب الفرق بين الفرق لعبد القادر البغدادي . مطبعة الهلال
المخصص في اللغة لابن سيده . بولاق
مراصد الاطلاع في اسماء الامكنة والبقاع . ليدن
مروج الذهب للمسعودي . بهامش نفح الطيب المقري . مصر

مسالك الابصار لشهاب الدين العمري . المجلد الاول طبع احمد زكي باشا . مصر مطبعة الدار
مسالك الممالك للاصطخري . ليدن
معجم البلدان لياقوت الرومي . طبعة ليبسك
معجم البلدان لياقوت الرومي . مطبعة السعادة . مصر
معجم ما استعجم للبكري . طبعة وستنفلد
مقدمة ابن خلدون . بولاق

النجوم الزاهرة لابن تغري بردي . ليدن
نشوار المحاضرة للقاضي التنوخي . الجزء الاول . مطبعة هندية مصر
نفح الطيب للمقري . مصر ، المطبعة الازهرية
نَكْت الهميان في نُكَت العميان للصفدي . مصر
نهاية الارب في فنون العرب لشهاب الدين النويري . طبعة الدار
النهاية في غريب الحديث والاثر لابن الاثير . مصر

وفيات الاعيان لابن خلكان . بولاق

يتيمة الدهر للثعالبي . طبعة دمشق
يتيمة الدهر للثعالبي . طبعة مصر

G. Affagart, *Relation de Terre Sainte*. Paris, 1902
Henri de Beauvau, *Relation Journalière de voyage du Levant*. Nancy, 1619
P. Besson, *La Syrie et la Terre Sainte au XVII^e siècle*. Paris, 1862
J. Ebersolt, *Constantinople Byzantine et les voyageurs du Levant*. Paris.
B. T. A. Evetts, *The Churches and monasteries of Egypt*. Oxford, 1895
W. Heyd, *Histoire du Commerce du Levant*. Leipzig, 1885-1886
M^me B. de Khitrowo, *Itinéraires Russes en Orient*. Genève, 1889
H. Maundrell, *Voyage d'Alep à Jérusalem*. Paris, 1706
Carlier de Pinon, *Relation de voyage en Orient*. Paris, 1920
Fr. Eugène Roger, *La Terre Sainte*. Paris, 1664
P. Vansleb, *Nouvelle Relation de journal d'un voyage fait en Egypte en 1672-1673*. Paris, 1677

المخطوطات

برق الشام . خزانة جامعة ليدن Arabe 1466 (مختصر من كتاب الاعلاق الخطيرة لابن شداد)

بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم . خزانة بريتيش موزيوم Add. 23354
بيان ما يلزم اهل الذمة فعله ليقع التمييز بينهم وبين المسلمين وغير ذلك . لابي يعلى محمد ابن الحسين بن محمد بن الفراء . في خزانتي .

تباشير السرور لابن المعتز . خزانة باريس ٣٢٩٩
تاريخ بغداد لابن النجار . » » ٢١٣١
تاريخ الاسلام للذهبي . خزانة اكسفرد Laud. Or. 286
تاريخ البدر العيني . خزانة بريتيش موزيوم Add. 22360
تاريخ صلاح الدين الصفدي (الجزء الرابع) رقم ١٢١٦ المكتبة الاحمدية بحلب
تاريخ ميافارقين لابن الازرق الفارقي . بريتيش موزيوم Or. 5803
التذكرة الحمدونية . باريس ٣٣٢٤

الجامع المختصر لابن الساعي . الخزانة التيمورية

خريدة القصر للعماد الكاتب . باريس ٣٣٢٨

الدر الملتقط من كل بحر وسفط . بريتيش موزيوم Add. 19408
دستور المنجمين . باريس ٥٩٦٨
ديوان ابن المعتز . رواية الصولي . باريس ٣٠٨٧
ديوان ابي نواس رواية الاصبهاني . باريس ٢٨٢٩-٢٨٣٠-٢٨٣١
ديوان ابي نواس رواية الاصبهاني . خزانة الفاتيكان ٤٠٦
ديوان البحتري . باريس ٣٠٨٦
ديوان التلعفري . خزانة الفاتيكان ٣٦٠
ديوان السري الرفاء . باريس ٣٠٩٨
ديوان الامير تميم بن المعز لدين الله الفاطمي . ليدن Arabe 2038
ديوان المعاني لابي هلال العسكري . بريتيش موزيوم Add. 23443

ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر لابن طولون الصالحي . الخزانة التيمورية رقم ١٦٢٣
ذيل ابن قاضي شهبة . باريس ١٥٩٨

راحة الارواح في الحشيشة والراح . لتقي الدين البدري . باريس ٣٥٤٦
روض الآداب لاحمد بن الحجازي . بريتيش موزيوم Or. 3843

زبدة الحلب في تاريخ حلب . باريس رقم ١٦٦٦

السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي . باريس ١٧٢٧
سيرة احمد بن طولون للبلوي . دار الكتب الاهلية الظاهرية . دمشق ٣٦٣
سير البطاركة الاقباط . باريس ٣٠٢

اصلاح اغلاط الطبع

الصفحة	السطر	خطأ	صواب
٣٢٧	٢٥	وقبله قال الحسن بن هانئ يعني ابا حنيفة والشافعي	وقبله قال الحسن بن هانئ يعني ابا حنيفة والشافعي . وفي رواية ان القائل هو ابن الرومي :
٣٢٩	٢٧ حاشية٤	للثرواني	للشرواني
٣٣٠	٢١	بطيرناباذ	بطيزناباذ
٣٣٥	٨	الاقبال	الاقبال
٣٤٧	١٧	حدران	جدران
٣٤٨	٧	ريّان	مديان
٣٥٠	٢٠	بطيرناباذ	بطيزناباذ
٣٥١	٣	اشموني	اشموني
٣٥٣ ٣٥٥ ٣٥٧	اعلى الصفحة العنوان	دور الضيافة	حانات الديارات
٣٥٦	١٨	بموت	يموت
٣٦٦	١٣	ومتى	ومن
٣٦٨	٢٧ حاشية٢	ارشاد الادبب	ارشاد الاريب
٣٧٥	١١	الماس	العباس
٣٧٧	١١	تلحبى	تلحين
٣٨٦	٢٢ حاشية١	F. Besson	P. Besson
٣٨٩	٨	تأتي	يأتي
٤٠٠	٢٢ حاشية١	الفَرق بين الفِرَق	مختصر الفَرق بين الفِرَق